أجاثا كريستي

خطابات الموت

ترجمة
أحمد حسن

الحرية
للنشر والتوزيع

اسم الكتاب | خطابات الموت
ترجمة | أحمد حسن
الناشر | الحرية للنشر والتوزيع
٣ ميدان عرابى وسط البلد ـ القاهرة
ت: ٢٢٦١٥٦٤٦ ـ ٢٥٧٤٥٦٧٩
م: ١٢٣٨٧٧٩٢١.
رقم الإيداع | ٢٠٠٧/٣٦٧٨
الترقيم الدولى | 61- 85 - 23 - 206

الحرية 3 ميدان عرابى وسط البلد ـ القاهرة
للنشر والتوزيع 0123877921 - 25745679

الرسالة الأولى

لن أنسى أبداً ذلك اليـــوم الذى جاءتنى فيه الرسالة الأولى، فقد جاءتنى أثناء تناول الإفطار، ورحت أقلبها وأقلبها فى غير اكتراث، وفى بطء، كما يفعل المرء الآمن المطمئن الذى لا يتعجله أى عمل.

وقد تحققت أنها مرسلة من نفس البلد، وأن العنوان مكتوب على الآلة الكاتبة، وفضضتها قبل الرسالتين الأخريين اللتين تحملان خاتم بريد لندن، لأننى خمنت أن فى إحداهما فاتورة، وعرفت فى الأخرى خط ابن عمى.

وقد دهشت أنا وجوانا أشد الدهشة من هذه الرسالة وطربنا لها كثيراً، وما كان فى مقدورنا أن ندرك أنها كانت مقدمة لأحداث مفجعة ومآس دامية، بعواقبها العنيفة وشكوكها ومخاوفها. وما كان ليخطر ببالنا أن كل هذه الأحداث كان يمكن أن تقع فى ليمستوك، ولكن أرى أننى أسأت البداية لأنه كان يجب أن أتكلم عن ليمستوك أولاً، فإننى حين أصبت فى حادث تلك الطائرة، خشيت وقتاً طويلاً أن يكون قد قدر لى البقاء عاجزاً حتى آخر يوم فى حياتى، وذلك على الرغم من

أقوال الأطباء والممرضة التى تدعو إلى الاطمئنان. ثم جاء يوم أزالوا الجبس عن أطرافى. ورحت أعالج المشى فى حرص وحذر. وأخيراً، ربت ماركوس كنت، طبيبى، على كتفى وقال لى أن كل شىء على ما يرام، وأننى شفيت تماماً، وأردف يقول:

ـ كل ما أنت بحاجة إليه الآن هو الهواء النقى وحياة هادئة وراحة تامة... دع أختك تهتم بك. كل ونم وحاول، بقدر ما تستطيع، أن تعيش كما يعيش كل نباتى.

ولم أسأله إذا كان فى مقدورى أن أحلق فى الجو من جديد، لأن هناك أسئلة لا يجب أن يلقيها المرء خوفاً من أن يأتيه الرد عليها بما لا يحب، كما أننى لم أسأله، طوال الشهور الخمسة الماضية، إذا كان قد كتب على البقاء ممدداً على ظهرى حتى آخر يوم فى حياتى، فقد كنت أخشى أن تمكر بى الممرضة وترد على قائلة مثلاً «وما الداعى لمثل هذه الأسئلة السخيفة؟ أننا لا نستطيع أن نترك مرضانا يتكلمون هكذا».

ولهذا لم أسأل شيئاً. ومع ذلك فقد مرت الأمور على أحسن ما يكون. ولم يقدر لى أن أبقى عاجزاً، وأصبح فى مقدورى أن أقف على ساقى وأن أمشى. وأخذت أترنح فى البداية كالطفل الصغير وهو يتعلم المشى، فقد كانت ساقاى ضعيفتين واهنتين، ولكن لم يلبث هذا الضعف أن تلاشى سريعاً.

وقد رد ماركوس كنت، وهو طبيب قدير حقاً، على السؤال الذى لم أجرؤ على أن القيه عليه فقال:

ـ سوف تبرأ تماماً. لم أكن واثقاً من ذلك حتى الأيام الأخيرة، ولكن الفحص الذى أجريناه عليك يوم الثلاثاء الماضى يسمح لى أن أقول لك

ذلك. غير أن الأمر سيطول بك، ولابد لك من الصبر والإرادة. لا تحاول أن تتعجل، وإلا وجدت نفسك طريح الفراش فى إحدى المستشفيات. عالج أعصابك فقد أرهقتها العقاقير والمخدرات التى جرعناها لك، ولهذا أنصحك بأن تذهب إلى الريف وأن تقيم هناك وأن تهتم بالسياسة المحلية، وبفضائح القرية. اهتم بجيرانك فإن هذا سوف يعود عليك بكل الخير، وإذا أردت أن تعمل بنصيحتى فاذهب إلى مكان لا تعرف فيه أحداً على الإطلاق.

وأجبته بأن هذه هى نيتى فى الواقع. لأن أبغض شىء إلى نفسى هو أن يخصنى الناس برثائهم وشفقتهم، لا لشىء إلا لكى يبثونى همومهم وأشجانهم.

وهكذا وقع اختيارنا، أنا وجوانا، صدفة، من بين المنازل التى عرضها السماسرة علينا على بيت معروف باسم «ليتل فورز» بليمستوك، وهى قرية لم يسبق لنا الإقامة فيها، ولا نعرف فيها أحدا.

وكان البيت وفق ما نتمنى تماماً، فقد كان بيتاً صغيراً أبيض مشيداً على حافة الطريق، على بعد نصف ميل تقريباً من ليمستوك، تطل نوافذه على أراضى تغطيها أشجار من الفصيلة الخلنجية، وترى العين على يساره قبة جرس كنيسة ليمستوك، وكان ملكاً فيما سبق لفتاتين عانستين بقيت صغراهما على قيد الحياة، وتدعى مس اميلى بارتون.

وكانت هذه الأخيرة امرأة قصيرة القامة، مسنة وظريفة، وكانت شديدة التعلق ببيتها، لها صوت رخيم.. قالت لجوانا، وكانت قد ذهبت لمقابلتها وحدها، أنها لم يسبق لها أن عرضت «ليتل فورز» للايجار قبل ذلك أبداً.. وأنها ما كانت لتفعل ذلك لولا أن الظروف هى التى أرغمتها، وأردفت تقول:

ـ إن الأمور تغيرت، وارتفعت تكاليف الحياة وزادت الضرائب. أن لدى الأسهم والسندات طبعاً، وهى مضمونة، ولكنها أصبحت لا تدر شيئاً تقريباً. كل هذا قد جعل الحياة صعبة بالنسبة لى، وإذا كنت أقول ذلك فلأننى أرى أنك تفهمين لأنه لم يكن يطيب لى أن أؤجر بيتى لأناس أغراب. ولكن للضرورة أحكامها. ومهما يكن فإنه يسرنى أن أؤجر لك أنت، وأن تقيم به فتاة فى عنفوان الشباب مثلك، لأننى لا أشعر بأى ارتياح إذا ما أقام به رجل.

وعندما بلغ الحديث هذا الحد اضطرت جوانا أن تحدثها عنى. وتحملت مس اميلى الصدمة بلباقة وقالت:

ـ إنه ليحزننى أن أسمع هذا حقاً... حادث طائرة!... إن شباب اليوم بواسل حقاً... إذن فأخوك عاجز.

ويبدو أن هذا الخاطر قد شد من عزيمتها، ولا ريب أن تحركاتى، بصفتى عاجزاً بدت لها أقل ازعاجاً مما لو كنت سليماً، واستفهمت من أختى، فى شىء من الخجل إذا كنت أدخن فأجابتها جوانا:

ـ كما لو كان مدخنة... وأنا أيضاً.

قالت العانس العجوز:

ـ طبعاً. ما أغبانى إذ ألقى عليك هذا السؤال. ولكن ماذا تريدين؟ أننى لم أساير الزمن... كانت أخواتى أكبر منى، وعاشت أمى المسكينة حتى بلغت السابعة والتسعين من عمرها. وكانت قاسية جداً. ولكن الجميع يدخنون اليوم طبعاً... ليس بالبيت منافض.

أخبرتها أختى بأنها ستشترى كمية منها. وأردفت تقول بابتسامة:

ـ وأعدك بأننا لن نلقى بالأعقاب فوق المفروشات، فإننى أبغض

هذا كل البغض.

وتم الاتفاق أخيراً. وأجرنا البيت لمدة ستة شهور قابلة للتجديد لمدة ثلاثة شهور بعد ذلك. إذا رأى الطرفان. وقررت اميلى بارتون أن تنتقل للاقامة فى غرفتين أجرتهما لها خادمة قديمة كانت تعمل لديها. وقالت تحدث جوانا:

- أنها تدعى فلورنس، وقد تزوجت بعد أن قضت فى خدمتى خمسة عشر عاماً. وهى فتاة ظريفة، شديدة الإخلاص لنا، وزوجها يشتغل فى البناء، ولهما بيت جميل فى هاى ستريت. وقد أجرت لى غرفتين فى الطابق الأخير.



وهكذا سويت الأمور، وتم الاتفاق على أن تبقى مارى بارتريدج، خادمة اميلى بارتون معنا، وأن تقوم بخدمتنا، هى وفتاة كانت تأتى لمساعدتها كل صباح. وكانت مارى امرأة ناضجة، طويلة القامة نحيلة الجسم، تجيد الطهى.

وكان قد مضى علينا بالبيت ثمانية أيام عندما مرت مسز بارتون وتركت بطاقتها. وحذت مسز سيمنجتون، زوجة المحامى حذوها. ثم الآنسة جريفيث، أخت طبيب القرية. ومدام دين كالثروب، زوجة القسيس، ومستر باى، صاحب بيت بريورز اند.

ودهشت جوانا لذلك وقالت:

- لم أكن أعرف أن الناس يتركون بطاقاتهم بقصد الزيارة.

أجبتها: - ذلك لأنك لا تعرفين شيئاً عن حياة الريف:

صاحت: هل تمزح؟... بعد عطلات نهاية الأسبوع التى قضتها عند الأصدقاء؟

ـ هذا شيء آخر.

وأنا أكبر من جوانا بخمس سنين. وأتذكر تماماً أننى كنت، وأنا طفل، أمرح فى الحديقة التى كانت تحيط ببيت أبوى الريفى. وأذكر أننى كنت اختبئ خلف أشجار الفراولة التى كان البستانى يراقبها عن كثب، ومازلت أشم رائحة الاسطبل، ويخيل لى أننى مازلت أسمع صهيل الجياد. وكنت فى السابعة من عمرى عندئذ. ولم تكن جوانا قد تجاوزت الثانية من عمرها بعد، حين انتقلنا للإقامة فى لندن بصفة نهائية.

كنت أفكر فى كل هذا، وفى الإصابة التى أرغمتنى على الانتقال إلى الريف. وقلت لجوانا أننى أخشى أن تمل هذه الحياة سريعاً، وأردفت أقول: لأن هناك أشياء كثيرة سوف تفتقدينها.

ذلك لأننى كنت أعرف جوانا، فقد كانت جميلة، ومرحة، تحب الرقص، وشديدة الشغف بقيادة السيارات، ولا تكره غزل الرجال.

وضحكت عندئذ وقالت أننى مخطئ فى خوفى هذا واستطردت:

ـ والواقع أننى مسرورة لهذا التغيير، فقد سئمت كل الناس الذين أعرفهم. ثم إن بول أحزننى كثيراً، ولابد لى من فترة من الوقت لكى أنساه.

وتقبلت قولها هذا فى شيء من الشك، فإن مغامرات جوانا الغرامية تتطور حسب الظروف. فكانت تقع من وقت لآخر فى غرام شاب طائش تظنه نابغة لا يقدره الناس حق قدره، فتصغى إليه ساعات وساعات، وتتعارك بعد ذلك لكى يعترف الناس بموهبته، ثم لا تلبث أن ينكشف لها عقوق بطلها، فتقول عندئذ أن قلبها قد تحطم، وهو موقف مؤلم يمتد إلى أن يظهر شاب آخر غير مقدر، أى بعد ثلاثة أسابيع فى المتوسط.

واستطردت جوانا تقول:

ـ إننى اعترف على كل حال بأننى اندمجت فى حياة الريف.. أننى غدوت كأية امرأة ريفية الآن.

ونظرت إليها منتقداً، ولم يسعنى إلا أن أقول أننى لا أوافقها، فقد كانت ترتدى ثوباً رياضياً قصير الكمين ويبرز مفاتنها، وزوجاً من الجوارب الحريرية وحذاء براقاً. وقلت:

ـ كلا. أن ثيابك بعيدة كل البعد عن الثياب الريفية، فقد كان يجب أن ترتدى جونلة طويلة من التويد باهتة اللون وجاكيت واسعة طويلة الكمين وزوجاً من الجوارب الصوفية وحذاء ضخماً. عندئذ فقط تبدين كأنك من أهالى ليمستوك حقاً.

وأردفت أقول بعد سكتة قصيرة: ثم إنك تستعملين الماكياج بطريقة صارخة، وقد كان الأولى بك أن تضعى فوق أنفك مسحة خفيفة من البودرة، وعلى شفتيك لمسة من الأحمر، وأن تتركى حاجبك بدلاً من إزالة ثلاثة أرباعهما تقريباً.

قالت فى شىء من الطرب:

ـ أتظن إذن أنهم سيجدوننى دميمة هكذا؟

ـ كلا. وإنما سيستغربون أمرك.

وراحت تفحص البطاقات التى تركها الزوار الذين كان من سوء حظهم جميعاً، فيما عدا زوجة القسيس، أنهم جاءوا وجوانا غير موجودة. وقالت: يخامرنى احساس بأننا هبطنا قرية سعيدة... زوجة المحامى وأخت الطبيب... يبدو أن الجميع هنا متآلفون، ولا أظن أنه يمكن أن يقع فى هذه القرية ما يكدر.

وكان قولها هذا سخيفاً طبعاً، ولكننى لم أشأ أن أصرح لها بذلك.

ووافقتها على أن أهالى قرية ليمستوك لا ريب قوم سعداء. وأنه لما يدعو إلى الطرب أننا تسلمنا الخطاب الأول بعد ذلك بثمانية أيام.

* * *

أرى أننى أسأت البداية، كما قلت، فلم أصف ليمستوك، وإذا لم أسد هذه الثغرة فسوف تبقى قصتى مبهمة غير مفهومة. وأول نقطة تسترعى النظر هى أن لليمستوك هذه ماضيا. وماضيا مشهورا، فقد لعبت دوراً كبيراً أثناء الغزو النورمندى، إذ كان يقع فيها دير يشرف على إدارته رهبان أقوياء صالحون، فقد راح الإقطاعيون والنبلاء يسوون أمورهم مع السماء بتقديم الأراضى لرجال الدين بحيث أصبح هؤلاء قوة لا يستهان بها. ولكن لم يلبث أن تغير بهم الحال فى عهد الملك هنرى الثامن فانتقل الدير إلى المرتبة الثانية، وظلت المدينة تعرف الرواج حتى القرن السابع عشر فتخلف عنها التقدم، وتجاهلتها السكك الحديدية، وفقدت أهميتها، ولم تعد أكثر من مركز لا ينتعش إلا أيام السوق.. بلدة صغيرة ضائعة فى قلب الريف الانجليزى.

وكان السوق يقام مرة كل أسبوع. وفى هذا اليوم ترى فى كل مكان قطعانا من الأغنام تساق إلى المدينة، والنشاط التجارى للبلد كان يتركز فى شارع هاى ستريت، وهو شارع جميل تصطف فيه البيوت بطريقة محببة إلى النفس، تجد فيه محلا للبقالة، ومحلا للقماش ومحلا كبيراً للخردوات، وأخرى للجزارة ومتاجر كثيرة أخرى، ومكتباً للبريد. وفى ليمستوك أيضاً طبيب ومحام يدعى سيمنجتون. وكنيسة جميلة يرجع بها العهد إلى القرن الرابع عشر، ومدرسة حديثة البناء ومقهيان.

وبفضل مس اميلى بارتون زارتنا جميع الشخصيات المعروفة بليمستوك، ولم يبق علينا إلا أن نرد لهم الزيارة. واستعدت جوانا لذلك

بأن اشترت زوجاً من القفازات. واستبدلت طاقيتها القطيفة بقبعة جديدة.

وقد اطربتنا هذه الزيارات التى رحنا نستعد لها، فإننا لم نأت إلى ليمستوك للاقامة فيها إلى الأبد، وإنما لقضاء فترة من الوقت ريثما استرد صحتى، وكان يجب أن أهتم بجيرانى، وقد قال لى طبيبى ماركوس كنت أنه لا يجب أن أهمل فضائح البلد، ولم يكن يشك طبعاً فيما ينتظرنى.

والغريب أن الخطاب، عندما تسلمناه، أطربنا كل الطرب.

وأتذكر أنه جاءنى ونحن نتناول طعام الافطار، وأخذت أقلبه وأقلبه بين يدى فى غير اكتراث، وفى بطء، كما سبق أن قلت، ولاحظت أنه مرسل من ليمستوك نفسها. وكان العنوان مكتوباً على الآلة الكاتبة وفضضت الظرف ولم أجد بداخله إلا ورقة الصقت عليها بعض الكلمات المقطوعة من احدى الجرائد. وكان خطاباً غريباً نظرت إليه لحظة وأنا لا أفهم.

وكانت جوانا تفحص فواتيرها، ولحظت دهشتى فقالت:

ـ ما الخبر؟

قلت: ـ أنه خطاب غفل عن الإمضاء وبغيض جداً.

والحق أن الخطاب أصابنى بصدمة عنيفة، فلم أكن أنتظر شيئاً كهذا فى قرية نائية كليمستوك. وصاحت جوانا وقد بدا عليها الاهتمام على الفور:

ـ حقاً؟... وماذا يقول؟

وقد قرأت روايات كثيرة، ولاحظت فيها أن الخطابات التى تأتى من مجهول ولا تحمل توقيعاً لا تعرض على السيدات بقدر المستطاع،

وذلك خوفاً على مشاعرهن واحساساتهن. ولكن يؤسفنى أن أعترف أن هذه الفكرة لم تخطر لى، وأننى لم أتردد لحظة واحدة، ودفعت بالخطاب إلى جوانا. ويجب أن أقول أنها قرأته دون أن يظهر عليها أى انفعال، وقالت أخيراً فى شىء من الطرب:

ـ حسناً. يا لها من كلمات بذيئة ظريفة. طالما سمعت عن الخطابات المجهولة، ولكن لم يسبق لى أن رأيت واحداً منها. أهى دائماً بهذا الأسلوب؟

أجبت: ـ لا أدرى. فهذه أول مرة يأتينى فيها خطاب من مجهول.

وعادت جوانا تقول:

ـ لا ريب أنك كنت على حق عندما تكلمت عن الماكياج الذى استخدمه، ولا ريب أن أهالى القرية مقتنعون بأننى لست أختك.

قلت: ـ على الأرجح. ولا تنسى أن أبانا كان رجلاً طويل القامة وأسمر البشرة، فى حين كانت أمنا شقراء قصيرة القامة، وأننى أشبه أبى فى حين أنك تشبهين أمنا.

ـ هذا صحيح.. ليس بيننا أى شبه، ومن يرانا لا يظن أبداً أننا شقيقان.

ـ هناك شخص على كل حال مقتنع بأننا لسنا كذلك.

وأمسكت جوانا الخطاب باصبعين فى مرح، وسألتنى ماذا أفعل به فقلت فى اشمئزاز:

ـ أظن أن أوفق شىء هو أن نلقى به فى النيران.

وألقت به فى نار المدفأة ثم نهضت ومضت إلى النافذة، وقالت بعد لحظة: إننى أتساءل من الذى كتب هذه الرسالة؟

ـ من الجائز أننا لن نعرف ذلك أبداً.

ـ هذا جائز حقاً.

وأردفت تقول بعد صمت قصير:

ـ إذا أردت الحق فإن هذا الخطاب قد ضايقنى كثيراً، فقد حسبت أن الأهالى هنا اعتادوا علينا، وأنهم يميلون إلينا.

أسرعت أقول:

ـ وهذا صحيح. ولكن كاتب هذا الخطاب مجنون، وليس هناك ما يدعو إلى القلق.

ـ أرجو ذلك... هذا عمل بغيض على كل حال.

وخرجت لتستمتع بقليل من الشمس، وأشعلت أنا سيجارة وأنا أقول أنها على حق، فقد كان هذا العمل بغيضاً، وإن دل على شيء فإنما يدل على أن هناك شخصاً لا تروق له اقامتنا فى ليمستوك... شخص... رجل أو امرأة يحسد جوانا على شبابها ومرحها وجمالها ويحاول أن يلحق بنا الضـــرر. ومن الأوفق أن نطرح هذا الأمـــر عن بالنا وأن لا نكترث له. ولكن لم يكن ذلك سهلاً.

وكان الدكتور جريفيث يفحصنى مرة كل أسبوع، وقد أقبل فى ذلك الصباح. وكان رجلاً ظريفاً... ولكنه كان أخرق وخجولاً. وأبدى ارتياحه التام بصحتى، ولكن فى شيء من التحفظ، وأردف يقول:

ـ يخيل لى أن هناك ما يقلقك... لأننى أراك اليوم على غير عادتك.

قلت:

ـ ذلك أنه جاءنى اليوم خطاب من مجهول بذئ جداً... وأنه لأمر بغيض...

تجهم وجهه، وأفلتت حقيبته منه وقال:

ـ هل جاءك خطاب أنت أيضاً.

ـ وهل تلقى آخرون خطابات من مجهول؟

ـ نعم. منذ بضعة أيام.

قلت: آه... ظننت أن هذا الخطاب جاءنى لأن أقامتنا هنا لا تروق لشخص ما.

قال جريفيث: أبداً... وماذا يقول الخطاب؟

ولكن لم يلبث أن علت وجهه حمرة الخجل وقال فى شىء من الضيق:

ـ معذرة... ما كان يجب أن ألقى هذا السؤال طبعاً.

أسرعت أطمئنه قائلاً:

ـ ليست هناك أية أهمية. أن مرسل الخطاب يقول أنه يعرف تماماً أن الفتاة التى تستعمل الماكياج بطريقة صارخة والتى أتيت بها معى ليست أختى، وهذا وصف مخفف جداً لمضمون الخطاب.

صاح وقد ارتسمت على وجهه امارات الاشمئزاز:

ـ يا للعار أرجو أن لا تكون أختك قد اكترثت بهذه الرسالة البغيضة.

ـ اطمئن... أن جوانا عصرية وجديرة بأن تتحمل كل شىء. لقد اطربتها المسألة كثيراً، فهذه أول مرة يسبونها فى خطاب مجهول. وماذا كان بوسعها أن تفعل غير هذا إزاء هذه الاتهامات المضحكة؟

ـ هذا صحيح.. ولكن.. المزعج مع الخطابات المجهولة أنها وباء سريع الانتشار.

وساد صمت، وقلت: أليست لديك أية فكرة عمن يمكن أن يكون قد

كتب هذه الخطابات؟

ـ كلا، لسوء الحظ.

وفكر بضع لحظات ثم استطرد يقول: عندما ينتشر مرض الخطابات المجهولة فى كل مكان ما فان أول ما يجب عمله هو أن نحاول معرفة طبيعته. وإذا أرسلت الخطابات المذكورة إلى شخص واحد أو إلى مجموعة معينة من الأشخاص فيمكن أن نستخلص من ذلك أن مرسلها يحقد عليهم، وأنه يروى غليله بهذه الطريقة البغيضة. وفى هذه الحالة فإن مرسل الخطابات يكون شخصا مجنونا، ومن السهل الاهتداء إليه، وهو عادة يكون إما خادما مطرودا أو امرأة حاقدة. ولكن إذا أرسلت الخطابات إلى عدد محدود من الأشخاص المعنيين، فإن المسألة تكون عندئذ على جانب كبير من الخطورة. وكاتب الخطابات فى هذه الحالة لا يكون لديه ما يدعوه إلى الحقد أو الضغينة عليهم، وهو على هذا أما أن يكون مجنوناً أو مريضاً، وإذا ما اكتشفوا أمره، وغالباً ما يكون هذا بالشىء العسير، يتضح أنه شخص بعيد عن الشبهات، وأنهم ما كانوا ليشكوا فيه على الإطلاق. وقد وقعت حالة كهذه فى العام الماضى فى الإقليم المجاور، وكانت كاتبة الخطابات فتاة محترمة ومهذبة، كانت تشرف منذ وقت طويل جداً على إدارة قسم أدوات التجميل فى أحد المحلات الكبرى. وأخشى أن نكون فى بداية مسألة مماثلة، واعترف أن الأمر يخيفنى كل الخوف.

ـ وهل بدأ وباء هذه الخطابات منذ وقت طويل؟

أجاب جريفيث: لا أظن. ولكن من العسير أن نعرف ذلك لأن الأشخاص الذين يتسلمون مثل هذه الخطابات لا يذيعون ذلك على الملأ، ويكتفون بالقائها فى النار، ولا يتحدثون عنها بعد ذلك.

وأمسك بضع لحظات ثم استرسل يقول: وقد جاءنى واحد منها. والمحامى سيمنجتون كذلك، وبعض المرضى الذين أعالجهم. وقد اتهم صاحبنا سيمنجتون بأن له علاقة آثمة مع سكرتيرته، مس جينسن المسكينة، مع أنها تجاوزت الأربعين، وتلبس نظارة سميكة، ولها أسنان كأسنان الأرنب، وبعيدة كل البعد عن الجمال والفتنة. واتهمنى أنا بأننى أنسى واجبات المهنة وأتمادى مع المريضات. وهى، فى عمومها، اتهامات صبيانية ومضحكة، ولكن خطرها شديد، وهذا هو سبب خوفى، فإن مثل هذه الخطابات قد تسبب فى وقوع كارثة.

- أظن ذلك.

واستطرد جريفيث: أنها خطابات سخيفة وفظيعة. ولكن قد يكون فى أحدها اتهام حقيقى بالذات، ولا ندرى عندئذ ماذا يمكن أن يحدث، خصوصاً إذا كانت الضحية غير مثقفة وساذجة.. فإنها عندئذ ستصدق أن الاتهام صحيح.

قلت: إن الخطاب الذى جاءنى يدل على أن كاتبه غير مثقف.

قال فى لهجة تفيض بالشك: هل تظن ذلك؟

وخرج على هذه الكلمات. وقد أقلقتنى كلماته الأخيرة وقتاً طويلاً بعد انصرافه.



الوهم الخاطئ

لـن أزعـم أن ذلـك الخـطـاب لـم يضـايقنى لأن ذلك غـيـر صـحـيح، ولكن يجب أن أقـول أننى لم ألبث أن نسـيـتـه لأننى لم آخـذه مـأخـذ الجد.

وأذكر أننى قلت لنفسى أن مثل هذه الأشياء شائعة الحدوث فى القرى الصغيرة النائية، وأن من المحتمل أن كاتب هذه الخطابات امرأة مسكينة رأت أن تقدم على أمر مثير تغير به رتابة الحياة التى تحياها، وأنه إذا كانت جميع الخطابات التى جاءت لأهالى ليمستوك صبيانية ومضحكة بهذه الصورة فإن الضرر ليس كبيراً.

ولكن جاءتنى مارى بعد ثمانية أيام، وقالت لى بلهجة خطيرة أن بياتريس، الفتاة التى تأتى لمساعدتها كل صباح ستلازم بيتها فى ذلك اليوم. وأردفت تقول: وقد فهمت يا سيدى أنها شديدة الاضطراب.

ولم أفهم قولها جيداً، ولكننى توهمت، وكان وهمى خاطئاً، بأن مارى تشير إلى اضطرابات معوية، ولذلك قلت لها أننى حزين من أجلها، وأننى أرجو أن تتحسن صحتها قريباً فأجابتنى قائلة:

- أنها فى صحة جيدة.. ولكننى كنت أعنى أنها متوترة الأعصاب معنوياً.

قلت: آه..!

- نعم يا سيدى.. بسبب خطاب جاءها بالبريد. خطاب به كثير من التعريضات.

وحملتنى نظرة مارى المتجهمة واللهجة التى نطقت بها كلمة «تعريضات» على التفكير.كان من المحتمل أن هذه التعريضات تتعلق بى، ولم أكن قد أبديت أى اهتمام ببياتريس، وأظن أننى ما كنت لأعرفها لو أننى التقيت بها فى الشارع، ثم أنه من العسير على رجل يمشى على عكازين أن يغوى فتاة قروية بحيث يصرفها عن أداء واجباتها. ولهذا قلت لها بفروغ صبر أننى استسخف هذه القصة. وردت على مارى قائلة:

- هذا ما قلته بالذات لأم الفتاة. قلت لها أنه ليس هناك ما يعيب فى هذا البيت، وإلا ما بقيت أنا فيه. أما ابنتك بياتريس، فأننى أعرف ما عليه بنات اليوم، وابنتك ليست ساذجة، والحقيقة يا سيدى أن بياتريس تخالط شابا يعمل ميكانيكيا فى الجراج وتخرج معه كل مساء، وقد جاءه خطاب هو الآخر.

قلت: أننى لم أسمع فى حياتى على كل حال مثل هذه القصة السخيفة أبداً.

ختمت مارى حديثها قائلة: هذا هو رأيى يا سيدى، ولكن المهم هو أننا تخلصنا من الفتاة، وإذا كان ذلك الخطاب قد أثار اضطرابها إلى هذا الحد فلا ريب أن هناك شيئاً تخفيه، فليس هناك دخان من غير نار كما يقال..

ومـا كنت أدرى عندئذ أن عـبـارتهـا الأخـيـرة سـتظل تلح على ذهنى بصورة غريبة.

* * *

كان الوقت جميلاً فى ذلك الصباح، فقد كان يعبق بحلاوة الربيع، وكنت قد عـزمت على أن أذهب إلى القـرية مـشيـاً على الأقدام. وعندمـا أخذت عكازتى، عرضت جوانا أن ترافقنى ولكننى احتججت فى شدة قائلاً:

ـ كـلا.. لست بحـاجـة إلى مـلاك حـارس لكى يهـمس لى بكلمـات مـشـجـعـة. أننى أنوى أن أقـوم بأشـيـاء كـثـيـرة، فـيـجب أن أذهب إلى سيمنجتون لكى أوقـع على نقل ملكية الأسـهم، وسـأمضى بعـد ذلك إلى الخـبـاز لكى أشكو له من نوع الكعكة، ثم يجب أن أذهب إلى المكتبـة ومنها إلى البنك. أن يومى، كما ترين مشحونا فأبقى بالبيت..

وتم الاتفاق على أن تأتى جوانا إلى البنك لكى تعود بى بالسيارة.

ولم ترافـقـنى أخـتى، ومع ذلك فلم أذهب إلى القـريـة وحـدى لأننى كنت قـد قطعت بضع مـئات مـن الأمـتـار عندمـا سـمـعت خلفى جـرس دراجـة أعـقب صوته فـرملة شـديدة، ووقفت مـيـجـان هنتـر بجـوارى، ووضعت قدميها على الأرض وهى تقول:

ـ هالو.. كيف حالك..؟

وكنت أحب ميجان وارثى لها شيئاً ما.

كانت ابنة مسز سيمنجتون، أنجبتها من زوجها الأول، الكابتن هنتو، وقد فهمت أن ما من أحد يميل إلى التحدث عنه، وكل ما قيل عنه أنه أساء معاملة زوجته، وأنها حصلت على الطلاق بعد سنتين أو ثلاث من

الزواج. ولما كانت على شىء من الثراء، فقد انتقلت بعد طلاقها إلى ليمستوك فى محاولة للنسيان، وأنها انتهت بأن تزوجت الأعزب الوحيد الذى يصلح لها وهو ريتشارد سيمنجتون، وأنجبت طفلين. وقد خامرنى احساس بأنها أهملت ميجان، وأنها حولت كل اهتمامها ورعايتها إلى هذين الطفلين.

ولم تكن تشبه أمها فى شىء، فقد كانت هذه الأخيرة قصيرة القامة وضعيفة، ذبل جمالها، وتتحدث فى حزن عن صحتها وعن المتاعب التى تلقاها من الخدم. أما ميجان فكانت فتاة طويلة القامة، خرقاء بعض الشىء، فى العشرين من عمرها، ولكن يظنها من يراها لاتزال فى السادسة عشرة، شعرها أسمر مشعث طوال الوقت تقريباً، ولها عينان خضراوان جميلتان ووجه بارز التقاطيع وابتسامة ساحرة تأخذ بمجامع القلوب، ترتدى ثيابها كيفما أتفق وجواربها ممزقة دائماً. وكانت تبدو بثيابها هذه أقرب إلى الحيوانات منها إلى البشر، ولو أنها اعتنت بنفسها قليلاً لكان لها شأن آخر.

وخاطبتنى قائلة: أأنت ذاهب إلى ليمستوك..؟ رأيتك تمشى وحدك، وخطر لى أن أسير معك.. وقد هبطتُ من الدراجة مسرعة بعض الشىء.

ـ هذا صحيح.. وقد تمزق جوربك..

نظرت إلى ساقها اليمنى وقالت: أجل. ولكن لا أهمية لهذا فقد كان به ثقبان من قبل.

ـ ألا ترتقين جواربك أبداً يا ميجان؟

ـ بل أفعل.. عندما ترغمنى أمى على ذلك.. ولكنها لا تهتم بى إلا

نادراً.. وهذا لحسن الحظ من ناحية..

قلت: يبدو أنك لا تدركين أنك أصبحت فتاة كبيرة؟

ـ هل تقصد أن تقول أننى لست متبرجة كأختك التى تبدو كالدمية.

ولم يرق لى وصفها عن جوانا وقلت محتجاً: أن أختى تعنى بنفسها، ومنظرها يسر الناظرين.

ـ إنها جميلة جداً حقاً، ولكنها لا تشبهك، فكيف هذا؟

ـ إن الأخوة والأخوات لا يتشابهون دائماً.

ـ هذا صحيح. وأنا لا أشبه بريان ولا كولان.. كما أن كلاً منهما لا يشبه الآخر..

ومشينا فى صمت بضع لحظات ثم واصلت الحديث بعد قليل، فقالت فى شىء من الخجل:

ـ إنك كنت طياراً، أليس كذلك؟

ـ نعم..

ـ وهل أصبت أثناء حادث؟

ـ نعم. وقعت بى الطائرة على الأرض وتحطمت.

وعادت تقول بعد صمت آخر: أن أحداً هنا لا يطير.

قلت: هذا لا يدهشنى.. أتحبين أن تطيرى يا ميجان..؟

نظرت إلى فى دهشة كبيرة وقالت: أنا.. يا إلهى. كلا.. أننى لن أحتمل ذلك، فأننى أشعر بالمرض وأنا فى القطار.

وعلى الفور، وبتلك الجرأة التى يتميز بها الأطفال، ألقت على سؤالاً لم أكن أتوقعه طبعاً.

ـ هل تظن أنك ستشفى تماماً وتستطيع الطيران من جديد، أم أنك ستبقى عاجزاً هكذا إلى الأبد؟

أجبت: يؤكد لى طبيبى أننى سأشفى تماماً.

قالت: المهم أن تعرف هل هو صادق أم لا؟

ـ لا أظن أنه كاذب. بل أننى أثق فى قوله.

صاحت تقول: يسرنى أن أسمع هذا. ولكن هناك كثيرين يكذبون.

وكانت هذه حقيقة لا تقبل الجدل، وقد تقبلتها دون أن أنطق بشىء.

وغيرت مجرى الحديث بعد ذلك، فتكلمت عن ذكرياتها عن أيام الدراسة، وعما كانت تجده من عناء فى أدب اللغة، وفى قواعد النحو والصرف. وبلغنا أول شارع هاى ستريت ونحن نتجاذب أطراف الحديث فى هذه الناحية. وسمعت ميجان تقول فجأة:

ـ آه.. ها هى مس جريفيث.. أنها امرأة قذرة.

ـ ألا تحبينها..؟

ـ أننى أبغضها، فهى دائمة التشبث بى لكى أنضم إلى فرقة المرشدات التى تشرف عليها. وأننى أكره كل هذه التفاهات، فما الحاجة إلى التجول جماعات. بذلك الزى المضحك، وعلى صدر كل منهن نياشين تدل على أنها تعرف كل شىء، فى حين أنها تعجز عن عمل أى شىء كما يجب. أن كل هذا ما هو ألا نفاق.

وكنت أتفق مع ميجان فى هذه النقطة على العموم، ولكن لم يسعفنى الوقت لكى أطلعها على ذلك، فقد أقبلت مس جريفيث علينا، وهى أخت الدكتور جريفيث، وتدعى أيميه، وتواجه الحياة بكل ثقة وجرأة على خلاف أخيها. وتتمتع بقسط من الجمال، وإن كانت تشبه الرجال فى طباعها.

حيتنا تحية طيبة وقالت أن الوقت جميل ثم خاطبت ميجان قائلة:

ـ كنت أتمنى أن التقى بك هذا الصباح بالذات يا ميجان فأننى بحاجة اليك لكى تساعدينى فى تحرير عناوين أصدقاء النصب التاريخية.

اعتذرت ميجان فى صوت خافت، وفى كلمات مبهمة، ثم ركنت دراجتها أمام الافريز وأسرعت بالاختفاء داخل أحد المتاجر. وتابعتها مس جريفيث بعينيها ثم قالت:

ـ إن هذه الفتاة غريبة الأطوار وشديدة الكسل. تقضى كل وقتها فى التسكع، ولا ريب أن أمها تلقى منها كل عناء. وأنا أعرف أن مسز سيمنجتون المسكينة حاولت أن تجعل منها شيئاً، كأن تتعلم الاختزال أو الطهى أو تربية الأرانب الانجوراه، فهناك أشياء كثيرة يجب على الفتاة أن تتعلمها. ولكن ميجان لا تحفل بأى شىء أبداً.

وقلت لنفسى أن هذا قد يكون صحيحاً، ولكن لو أننى كنت مكان ميجان لرفضت كل اقتراحات مس جريفيث لأن لهجتها الرجالية كانت تثير حنقى.

واستطردت مس جريفيث تقول:

ـ أننى أكره البطالة، وخصوصاً عند الشباب. ولو أن ميجان كانت جميلة، أو على شىء من الفتنة لهان الأمر. وأننى لأتساءل فى بعض

الأحيان إذا لم يكن بها مس من الجنون. على أن أباها لم يكن يساوى شيئاً هو الآخر. وإنه لأمر محزن لأمها... ولكن الدنيا فيها كل شيء.

وضحكت ضحكة قصيرة ثم أردفت تقول:

ـ لا ريب أن الدنيا ما كانت لتتصلح وتسير لو أننا كنا جميعاً على صورة وهيئة واحدة. ولكننى على الرغم من هذا لا أحب الناس الذين لا يستخلصون من الحياة كل ما فيها من متع. أما أنا فإننى أحب التمتع بالحياة، وأتمنى أن يفعل الجميع مثلى. وبعض الناس يظنون أننى برمت بحياة الريف، ولكن الحقيقة غير ذلك فإننى أجد ما أفعله دائماً، وأنا سعيدة بهذا. وأجد دائماً وسيلة لكى أستخدم وقتى. فلدى المشرفات والجمعيات واللجان. ثم أن لدى أوين كذلك، إذ لابد لى من أن أهتم بأمره.

وعندما بلغت مس جريفيث هذا الحد من حديثها رأت صديقة لها على الافريز المقابل فأسرعت إليها فى حين مضيت أنا إلى البنك.

وعندما فرغت من شئونى هناك، ذهبت إلى مكتب المحامى سيمنجتون، وهناك أدخلت إلى المكتب الخاص به، وهو عبارة عن غرفة كبيرة يبدو أنها لم تعرف التهوية فى يوم من الأيام، ورصت بجوار جدرانها صناديق كبيرة من الكرتون كتب على كل منها اسم إحدى الشخصيات الهامة بالمنطقة، وقد رأيت بينها أسماء الليدى هوب وسير افراوكار ووليام هور وغيرهم. كان الجالس فى هذا المكتب يخامره احساس قوى بأنه أمام محام ناجح.

ورحت أفحص سيمنجتون وهو منحن فوق المستندات التى أحضرتها معى، وإذا كانت مسز سيمنجتون الحالية قد لقيت من

متاعب ومصائب فى زواجها الأول، فلم يكن هناك أى شك فى أنها لم تقدم على أية مغامرة بزواجها الثانى، فقد كان مظهر ريتشارد سيمنجتون يدل على أنه رجل محترم، وأنه زوج مثالى لن يسبب لزوجته أى ازعاج أو قلق. كان طويل العنق، له تفاحة آدم بارزة، ولوجهه شحوب الموتى. وكان رجلاً ظريفاً، ولم يكن هناك أى شك فى أنه زوج طيب وأب طيب، ولكنه كان من ذلك النوع من الرجال الذين يمكن أن تنظر النساء إليهم دون أن تخفق قلوبهن.

وتكلمنا عن الأعمال بضع لحظات، وكان مستر سيمنجتون يتكلم بدقة ووضوح، وقد سرنى أن أرى أنه رجل حسن التقدير. واتخذنا بعض القرارات المناسبة ثم نهضت لكى أنصرف. وقلت له عندئذ:

ـ إننى قطعت شوطاً من الطريق وأنا قادم إليك مع ابنة زوجتك.

نظر إلى بضع لحظات كما لو أنه لم يفهم ما أقول، ثم ابتسم وقال:

ـ آه.. ميجان!.. نعم. إنها أتت للإقامة معنا منذ بعض الوقت. ونحن نفكر فى أن نجد لها شيئاً تشغل به وقتها. ولكنها مازالت صغيرة جداً.. وهى متخلفة شيئاً ما عن سنها.. هذا ما يقال عنها على الأقل.

وفى المكتب الذى اجتزته فى طريقى إلى الخارج كان هناك ثلاثة من الموظفين، رجل مسن منحن فوق مستند راح ينسخ صورة منه فى بطء. وشاب ممتلئ الوجه، وامرأة أمام آلة كاتبة راحت تضرب عليها فى جد ومثابرة. وألقيت إلى هذه الأخيرة نظرة، فإذا بها فى منتصف العمر، ذات شعر مجعد، كانت هى مس جينسن، وانضممت إلى رأى أوين جريفيث على الفور، لأنه لم يكن هناك أى احتمال فى وجود أية علاقة بينها وبين مخدومها.

ومررت بعد ذلك على الخباز وقلت له أن الكعكة التى أرسلها إلينا بالأمس لم تكن طازجة أبداً، وقد قابل شكواى بكل ذهول واحتجاج، كما كان ينبغى أن يفعل، وأنهى الحادث بأن قدم لى كعكة أخرى كانت خارجة لتوها من الفرن.

وخرجت ووقفت على الافريز فى انتظار مجئ جوانا بالسيارة. وكان المشى قد أنهكنى، ثم أنه أصبح من العسير على أن أمشى بعكازتى والكعكة فى يدى.

ولكن جوانا لم يظهر لها أثر.

وفجأة، رأيت منظراً عجباً.. منظراً رحت أنظر إليه فى دهشة وذهول.. منظراً رائعاً استرعى انتباهى.. فعلى بعد بضعة أمتار منى، وعلى نفس الافريز الذى أقف فوقه كانت تأتى نحوى غانية تتهادى فى خطوات رقيقة، وتبدو كما لو أن قدميها لا تمسان الأرض.

غانية.. لم يكن هناك كلمة أخرى أصفها بها، فقد كانت كاملة الصفات لا يعيبها أى شىء.. خصلاتها شقراء ذهبية.. ولم تكن تمشى كما يمشى البشر، وإنما كان يبدو أنها تحلق فى الفضاء كالملائكة. كانت فتاة رائعة الجمال حقاً!

وكنت مذهولاً بحيث لم أشعر بما يجرى حولى . وأفلتت منى إحدى العكازتين، فانحنيت لكى ألتقطها، ووقعت منى العكازة الثانية. ورأيت نفسى أترنح، وأوشكت أن أقع على ظهرى لولا أن أسرعت الغانية وأمسكتنى بذراع قوية. واستعدت توازنى وأخذت أتمتم ببعض كلمات الاعتذار، بينما أعادت هى إلى العكازة والكعكة التى كانت قد وقعت منى، وهى تقول فى رفق:

- لا تعتذر، ولا تشكرنى، فإننى لم أفعل شيئاً يذكر.

كانت اللهجة رقيقة، ولكن الصوت كان عاماً ومبتذلاً.. بحيث تلاشى السحر وتبخر.

كانت فتاة جميلة، متينة البناء، سليمة الجسم ولا أكثر.

ورحت أفكر فيما كان يمكن أن يقع لو أن الله أتم عليها نعمته وحباها بصوت جميل. وتذكرت أمراً آخر سبق أن وقع لى وجعلنى أستغرب تصرفات القدر، فقد التقيت مرة بامرأة قصيرة القامة. دميمة، لها وجه كوجه الغوريللا. لا يمكن أن يهتم بها أى رجل، ولكنها عندما تكلمت سحرتنى بصوتها الرخيم الرقيق بحيث نسيت كل شىء آخر.

وجاءت جوانا فى هذه اللحظة ووقفت بسيارتها على حافة الافريز وسألتنى عما بى، فأجبتها: لا شىء.. ولكن إذا أردت الحقيقة فقد أصبت بصدمة كبيرة.. فقد رأيت شيئاً جعلنى أحلق فى السماء، ولكننى لم ألبث أن وقعت من على.

وأشرت إلى الغانية وهو تبتعد، وكانت تولينا ظهرها وقلت:

- هل تعرفين هذه الفتاة؟

أجابتنى جوانا بأنها المربية التى تعنى بولدى مستر سيمنجتون وسألتنى:

- أهى التى قلبت كيانك هكذا؟.. أنها جميلة حقاً، ويطيب للمرء أن ينظر إليها ويتأملها، ولكنها إذا تكلمت فقدت كل جاذبيتها.



زيـــارة

ذهبنا بعد ظهر ذلك اليوم لتناول الشاى فى بيت مستر باى، وهو رجل قصير القامة، مكتنز الجسم أشبه بالمرأة. وبيته معروف باسم «بريورز لودج»، به سجاجيد جميلة ومفروشات ثمينة وتحف نفيسة.

كل ستائره ووسائده من الحرير الغالى. وراحت يداه الممتلئتان ترتعشان فى انفعال وهو يرينا تحفه، ويصفها لنا بصوت حاد كله نشاط. وأنا وأختى نحب الأشياء الجميلة، ولهذا رحنا نصغى إليه فى إعجاب.

وقال ضمن ما قال:

ـ يسرنى أنكما أتيتما للإقامة بيننا، فإن الأهالى هنا متخلفون جداً، وقرويون أكثر من اللازم، ولا يعرفون كيف يفرشون بيوتهم. وقد رأيت بعينى رأس مقعد طراز لويس الخامس عشر، وهو تحفة من نوعه موضوعاً أمام منضدة من طراز الملكة فيكتوريا، ومن نوع مبتذل، وبجوارها مكتباً دوارا من خشب البلوط الملمع. وكما ترين يا آنسة، فإن

هذا بعيد عن الانسجام ويفتقر إلى الذوق والجمال.

«أما البيت الذى تقيمان فيه. وأعنى به بيت مس اميلى بارتون، فهو بيت جميل، ويضم مفروشات جميلة تدل على أن مس اميلى تتمتع بذوق سليم حقاً.

ولكنها مازالت تحتفظ ببعض المفروشات القديمة. وأظن أنها تحتفظ بها عن عاطفة لأنها ورثتها عن أمها».

ثم حول اهتمامه إلى وتغيرت لهجته، وانتقل من الحديث عن الفن إلى الثرثرة العادية التى يعبدها فقال:

- إنك لا تعرف شيئاً عن أسرة مس بارتون طبعاً، لأنك تعاملت مع السمسار رأساً، وهو أمر يؤسف له لأن لها قصة يجب أن تعرفها حقاً. عندما قدمت أنا للاقامة هنا كانت الأم العجوز لاتزال على قيد الحياة، وكانت امرأة عجيبة.. عجيبة جداً. كانت ضخمة الجسم، تزن نحو مائة كيلو، إن لم يكن أكثر. وكانت سيئة الأخلاق، أساءت معاملة بناتها.. كانت إذا تكلمت عنهن تقول «البنات» مع أن كبراهن كانت قد تجاوزت الستين من العمر فى ذلك الوقت.

كانت تنعتهن بالغباء وتحيل حياتهن جحيماً، وتسيطر عليهن تماماً ولا تسمح لأى منهن بأن تخالفها فى الرأى. كانت تفرض عليهن الذهاب إلى فراشهن فى الساعة العاشرة ولا تسمح لهن باشعال النار فى المدفأة حتى ولا فى أشد أيام الشتاء برداً وزمهريراً. ولم تكن تسمح لهن كذلك باستقبال صديقاتهن فى البيت، وكانت تحتقرهن لأنهن لم يتزوجن، وتمنعهن فى نفس الوقت من مصادقة أى أحد.

وأظن أن أميلى، فى وقت ما، أو لعلها أجنس أوشكت أن تتزوج

قسيساً، ولكن الأم وجدت أنه لا ينتمى إلى أسرة محترمة. ووقفت الأمور عند هذا الحد.

قالت جوانا:

ـ كل هذا أشبه باحدى الروايات.

أسرع مستر باى يقول: بل هى رواية حقاً. وقد ماتت المرأة البغيضة أخيراً، ولكن الشر كان قد استفحل، وعاشت بناتها بعد ذلك وهن يتكلمن فى صوت خافت، ويتساءلن هل كانت أمهن ترضى بهذا أو ذاك. وبقى البيت على حاله فلم يغيرن فيه شيئاً. ولم تلبث إن ماتت أديث، متأثرة بنزلة برد، وأجريت عملية لمينى لم تستطع العيش بعدها. أما مابل فقد وقعت لها أزمة لزمت الفراش بعدها نحو عشر سنوات قامت اميلى بتمريضها أثناء ذلك.. وأنه لأمر محزن أن تواجه هذه الأخيرة صعوبات مالية.. أن مواردها انخفضت كثيراً.

وقالت جوانا عندئذ أنها تشعر بالضيق تقريباً لإقامتها فى بيت مس اميلى، ولكن مستر باى احتج قائلاً:

ـ ولكن أبداً أيتها الآنسة العزيزة.. ولماذا تتضايقين؟.. أن فلورنس تعنى بها، وهى شديدة الاخلاص لها. وقد عبرت لى هى نفسها عن غبطتها وسرورها بتأجير البيت لكما.

قلت:

ـ إن جو البيت هادئ جداً ومريح.

تحول مستر باى إلى على الفور وقال:

ـ أهذا صحيح؟.. هل هذا رأيك؟.. هذا عجيب.

سألته جوانا:

ـ وما وجه العجب؟

أتى مستر باى بحركة مبهمة من يده وقال:

ـ إن من العسير أن أفسر ذلك. أننى شديد الحساسية من ناحية الأجواء، ومقتنع بأن أفكار الناس ومشاعرهم تترك أثرها فى الأماكن التى يعيشون فيها.. ويبقى منها شىء على الجدران وقطع الأثاث.

ورحت أصغى إليه فى دهشة وأنا أدور ببصرى فيما حولى. كيف أصف جو بريورز لودج؟.. تساءلت عن ذلك، وأرانى الآن مضطراً إلى أن أقول بأننى لم أشعر بأن بين جدرانه ما يدل على أى شىء على الإطلاق.. وانتبهت من تأملاتى عندما نطقت أختى بعبارة تقول فيها أنه يجب أن ننصرف. فأسرعت أنا الآخر ونطقت ببعض كلمات المجاملة، ثم خرجنا إلى الردهة.

وفيما كنا نقترب من الباب العمومى، سقط خطاب من الفتحة التى به، فانحنى مستر باى والتقطه وهو يقول: بريد بعد الظهر.

واعتدل فى وقفته واستطرد يقول:

ـ أرجو أن تأتيا لزيارتى من وقت لآخر، فإنه ليسرنى أن أتحدث دائماً إلى أناس مثقفين، فإن أهالى ليمستوك يعيشون فى الماضى، ولا يدرون شيئاً عن الأحداث التى تجرى فى بقاع الدنيا الأخرى.

وشد على يد كل منا، وساعدنى على ركوب السيارة فى رعاية كبيرة لم أكن محتاجاً إليها. وكانت جوانا جالسة أمام عجلة القيادة، فدارت بالسيارة لكى تخرج إلى الطريق العام، والتفتت عندئذ لكى تلقى بتحية

الوداع لمستر باى، وكان قد بقى واقفاً على البسطة أمام الباب. وانحنيت بدورى. وفى نيتى أن أودعه أنا الآخر.

ولكن أيا منا لم يتم حركته، فإن مستر باى كان قد فض خطابه، وأخرج منه ورقة راح ينظر إليها فى دهشة وقد اضطرم وجهه وظهرت عليه إمارات الغضب الشديد.

وفطنت عندئذ إلى أن شكل الخطاب كان قد أعاد إلى ذهنى شيئاً ما. وتمتمت جوانا تقول:

ـ يا إلهى!.. ماذا حدث للرجل المسكين؟

فقلت:

ـ يخامرنى احساس بأن يد الخفاء قد ضربته على كتفه.

كادت عجلة القيادة تفلت من يدىّ جوانا وهى تقول:

ـ هل تعنى أنه جاءه خطاب كذلك الذى تسلمناه؟

ـ أظن ذلك.

ـ ولكن فى أى بلد انتهى بنا المطاف؟.. من كان يخطر له أن مثل هذه الأمور تقع فى مثل هذه البلدة الصغيرة الهادئة؟.. ولكن من الذى يكتب هذه الخطابات يا جيرى؟

هززت كتفى وأجبت:

ـ وأنَّى لى أن أعلم يا عزيزتى؟.. أظن أنه رجل مسكين بعقله خبل.. رجل مجنون.

ـ ولكن لماذا يفعل هذا؟.. إن هذا منتهى.

- إذا كنت تريدين أن تعرفى حقاً فاقرئى فرويد أو سلى الدكتور أوين.

- أما هذا فلا.. فإنه لا يحبنى.

- ولكنه لم يرك كثيراً.

- بل رآنى بما يكفى لكى يسرع إلى الافريز الآخر تهرباً منى.

ووافقتها على أن هذا التصرف غريب منه وأردفت أقول:

- لقد عودك معجبوك على ابداء إعجابهم بشتى المجاملات.

قالت وهى تكاد تبتسم:

- أرجوك يا جيرى.. كفى مزاحاً وقل لى لماذا يكتب الناس مثل هذه الرسائل..

- إنهم رجال بعقلهم خبل كما قلت لك، وكتابة خطابات لا يوقعونها ترضى حاجة لديهم، وأظن أن بعض الناس إذا ما أحسوا بالمهانة أو الاستياء، أو إذا رأوا أن الغير لا يقدرونهم حق قدرهم يشعرون بسرور سئ إذ يعتقدون أنهم من القوة بحيث يطعنون فى الخفاء أناساً سعداء يستمتعون بحياتهم.

- أظن أن الذى يكتب هذه الخطابات لم يلتق تربية أو تعليما، فإن الرجل المهذب..

ولم تكمل عبارتها، ولم أجد من ناحيتى جدوى فى أن أقول شيئاً، فإننى لم أعتقد أبداً أن التربية أو التهذيب يعلمان الناس الشرف وحسن الأخلاق.

* * *

ذهبنا فى اليوم التالى لكى نلعب البريدج فى بيت آل سيمنجتون.

وكان ذلك فى أصيل يوم السبت، وكان المكتب مغلقاً. وكان هناك مائدتان للعب، وكنا ثمانية أفراد: مستر سيمنجتون وزوجته وأنا وجوانا، ومس جريفيث ومستر باى ومس بارتون ورجل يدعى الكلونيل أبلتون، لم نكن قد التقينا به بعد ويقيم فى كمبيكر، وهى قرية تبعد عن ليمستوك بنحو عشرة كيلو مترات، وكان فى الستين من عمره ويجيد اللعب. وقد أبدى اهتماماً كبيراً بجوانا ولا غرو فقد كانت أجمل فتاة فى ليمستوك.

وعندما وصلنا كانت مس هولاند تفتش فى مكتب صغير بحثاً عن الدفاتر الصغيرة التى تستخدم فى تسجيل نقاط اللعب. وعثرت عليها أخيراً، ونظرت إليها وهى تبتعد. كان يبدو أنها تنزلق على الأرض كما لو كانت مخلوقة روحانية. ولكن سحرها لم يعد ليؤثر فى، ولاحظت أن لها أسناناً كبيرة كما لو كانت قطعاً من الحجارة، وأن لثتيها تظهران بطريقة بغيضة جداً عندما تبتسم. وقالت تخاطب مسز سيمنجتون.

ـ هذه هى دفاتر اللعب.. سأطلب من أجنس أن تعد الشاى فى الساعة الخامسة، أما أنا فسأخرج بالولدين إلى حديقة لونج بارو. حتى لا يثيرا أية ضجة.

والحق إنها كانت فتاة جميلة، سليمة الذوق. وكانت جوانا تنظر إلىَّ فاحصة من طرف عينها، وكانت تضحك. ونظرت إليها فى برود شديد وأنا ألعنها فى قرارة نفسى لأنها كانت تعرف دائماً ما يدور فى ذهنى.

ولم نلبث أن بدأنا اللعب. ولعبنا دورين استطعت فيهما أن أعرف الكثير عن كل الموجودين. كانت مسز سيمنجتون تجيد اللعب إجادة

تامة، وكان الكولونيل ابلتون متهوراً فى لعبه، أما مس بارتون فقد كانت أسوأ لاعبة دون جدال.

وعندما فرغنا من اللعب، كانت الساعة قد بلغت الخامسة فانتقلنا إلى غرفة الطعام لكى نتناول الشاى، وعندئذ اندفع ولدان إلى الغرفة كالقنبلة، وهما فى أشد حالات الانفعال. وقدمتهما لنا مسز سيمنجتون بفخر أموى فى حين راح زوجها ينظر إليهما فى تسامح.

وعندما هممنا بمغادرة المائدة رأيت ميجان واقفة بجوار النافذة الكبيرة. وقالت أمها:

- آه.. ها هى ذى ميجان.

وكان فى صوتها رنة من الدهشة جعلتنا نعتقد أنها قد نسيت ابنتها تماماً.

ودخلت ميجان وصافحت كلا منا فى شىء من الارتباك. وقالت أمها:

- أخشى أننى نسيتك يا عزيزتى ولم أطلب من أجنس أن تعد لك الشاى، فقد تناولته مس هولاند هى والولدان فى الخارج، وحسبتك معهم.

أجابتها ميجان قائلة:

- لا بأس.. سأذهب إلى المطبخ.

وخرجت وهى تجر قدميها. وكانت ترتدى ثيابها بدون أية عناية. وكان جوربها ممزقين تمزيقاً شنيعاً عند كعبيها. وقالت مسز سيمنجتون ضاحكة:

- مسكينة ميجان!.. أرجو أن تلتمسوا لها عذراً فهى فى سن المراهقة. والبنات فى هذه السن يشعرن بالخجل دائماً ويأتين بأمور غريبة عندما يغادرن المدرسة وهن لم يكبرن بعد.

طوحت جوانا برأسها إلى الخلف، وكنت أعرف معنى هذه الحركة، فقد كانت نذيراً بالهجوم. وقالت:

ـ ولكن ميجان بلغت العشرين من عمرها.

قالت مسز سيمنجتون:

ـ هذا صحيح. ولكنها بقيت صغيرة جداً... إنها مازالت طفلة!.. وهذا يروق لى كثيراً.. فإنه لأمر جميل أن تكون لك ابنة لا تكبر سريعاً. وأظن أن كل الأمهات مثلى يتمنين أن يظل أولادهن صغارا.

أجابتها جوانا تقول:

ـ لا أرى أى جمال فى هذا. ماذا يكون الأمر لو أن تكبر الطفلة وتحتفظ فى نفس الوقت بعقلية بنت فى السادسة من عمرها.

احتجت مسز سيمنجتون قائلة بأنه لا ينبغى أن تأخذ كلامها على علاته، ورأيت فى هذه اللحظة أن تلك المرأة لا تروق لى إطلاقاً، وأن جمالها الذى يفتقر إلى الحيوية لابد يخفى خلفه أنانية وشراسة كبيرتين. وأردفت تقول:

ـ إن ابنتى المسكينة ميجان فتاة صعبة.. حاولت أن أجد لها شيئاً تشغل به وقتها.. شيئاً تستطيع أن تتعلمه عن طريق المراسلة، كالتفصيل مثلاً.. وكان بودى أن تتعلم الاختزال كذلك والضرب على الآلة الكاتبة.



وعدنا وأخذنا اماكننا حول مائدتى اللعب. وجلست جوانا وفى عينيها ذلك الوميض الأحمر، وقالت:

- أظن أن ميجان يجب أن تشترك الآن فى الحياة العامة.. فهل ستقيمين حفلة راقصة تكريماً لها.

صاحت مسز سيمنجتون فى دهشة وطرب:

- حفلة راقصة!.. ولكن مثل هذه الأمور لا تقع هنا.

- آه.. ستكتفين بالتنس إذن؟

- التنس؟.. ولكن هناك سنوات لم يمارس أحد التنس فى هذه القرية.. بل أن ريتشارد لا يلعب معى. ولكننا سنفكر فى هذا الأمر عندما يكبر الولدان. أما ميجان فلا داعى لأن تقلقى بشأنها، فإنها سعيدة جداً هكذا.

وفى طريق العودة، قالت جوانا غاضبة أن موقف ميجان يحزنها كل الحزن، وأردفت تقول:

- ويخامرنى إحساس بأن أمها لا تحبها.

- إنك تبالغين!

- أبداً. هناك أمهات كثيرات لا يشعرن بأى حب نحو أولادهن وميجان فتاة غريبة، تأتى إلى البيت بعنصر لا يتفق مع الباقى. وهذه ملاحظة لابد أنها شاقة لفتاة حساسة مثلها.

لم أنطق. ومرت لحظة ضحكت جوانا بعدها وقالت:

ـ ليس لك أى حظ مع المربية.

قلت لها فى وقار كبير أننى لا أفهم ما تعنيه فعادت تقول:

ـ دعك من هذا الغباء. إنك فى كل مرة كنت تنظر إليها كان الحزن يظهر فى وجهك. والحق أننى أشاركك الرأى وأن أمرها ليستحق الرثاء.

ـ أقول لك أننى لا أفهم.

استطردت تقول:

ـ ومع ذلك فإننى أشعر فى قرارة نفسى بسرور كبير، فإن هذا معناه أنك تعود إلى الحياة، فقد شغلنى أمرك كثيراً وأنت فى المستشفى، فلم يبد عليك أنك لاحظت أن ممرضتك جميلة جداً، وأن الله كريم مع المرضى أحياناً.

قلت:

ـ إن حديثك هذا يؤلمنى يا جوانا.

ولكنها استأنفت تقول بدون أن تعبأ بى:

ـ بحيث أننى سررت إذ رأيتك لاتزال جديراً بأن تهتم بفتاة جميلة. ولا جدال فى أنها جميلة، ولكن الشىء الذى لا أفهمه هو أنها لا تتمتع بأية جاذبية.

وهذا والحق غريب، فهناك نساء يجذبن الرجال اليهن، ونساء يفتقرن إلى الجاذبية تماماً. وأظن أن القدر يخطئ أحياناً عند التوزيع، فهو ذات يوم، يبنى «أفروديت» ويمنحها طبعاً مناسباً، ثم يخطئ فى

يوم آخر ويمنح هذا الطبع لامرأة مكتنزة الوجه، وعندئذ تصاب غيرها من النساء بالجنون ويقلن: لا أدرى ماذا يجد الرجال فيها. ومع ذلك فهى ليست جميلة!

- إذا أردت الحق فإن هذه الفتاة خيبت ظنى.

- ولست أرى فتاة أخرى تحظى باهتمامك، ولا مفر لك الآن من أن تغازل ايميه جريفيث.

- حاشا لله!

- ولكنها امرأة مسترجلة.

قالت جوانا:

- يبدو أنها تحب الحياة على كل حال.. فهى تتدفق صحة، ولا يدهشنى أن أعلم أنها تأخذ حماماً بارداً كل يوم.

قلت:

- إنك تشغلين بالك بى كثيراً، وهذه مكرمة منك. ولكن ماذا من أمرك أنت؟

- أنا؟

- نعم، فمما أعرفه عنك لابد لك من شىء من اللهو.

أطلقت جوانا تنهيدة كان يمكن أن تثير أى شخص إلا أنا، وقالت:

- من فينا الخبيث الآن؟.. هل نسيت بول؟

- لن يكون من السهل على نسيانه مثلك، فإنك سوف تقولين بعد

عشرة أيام: بول؟.. ومن هو بول؟. أننى لم أعرف أحداً باسم بول أبداً.

ـ هل تعتقد أننى متقلبة إلى هذا الحد؟

ـ مع أناس أمثال بول، وهذا وحده يدعو إلى الاغتباط.

ـ أنك لم تشعر نحوه بأى ميل أبداً، على الرغم من أنه كان على شىء من النبوغ.

ـ هذا جائز، وإن كنت أشك فى ذلك. إن النبغاء على كل حال قوم يجب أن نكون منهم على حذر. ومهما يكن من أمر فلن تجدى أحداً منهم هنا.

نظرت جوانا إلى لحظة ثم قالت فى لهجة حزينة:

ـ أظن ذلك.

ـ ولا مفر لك من منازلة أوين جريفيث. فإنه الأعزب الوحيد فى القرية. إلا إذا كنت تفضلين الكولونيل ابلتون فقد كاد يلتهمك بعينيه بعد ظهر اليوم.

ضجت بالضحك وقالت.

ـ هذا صحيح. وقد ضايقنى منه ذلك فى النهاية.

ـ دعك من الكذب. إننى لم أرك أبداً تخجلين من نظرة رجل.

لم تجب جوانا. وكنا قد وصلنا إلى البيت. وبعد أن أدخلت السيارة الجاراج قالت:

ـ هناك شىء فيما قلت منذ لحظة.

- وما هو؟

- لا أرى لماذا ينتقل رجل عامدا إلى الرصيف الآخر لكى يتجنبنى. هذه قلة أدب.

قلت:

- آه.. آه.. هل ستطاردين الرجل بكل جرأة وتقهرينه؟

- لم أقل هذا. ولكننى لا أحب أن يتجاهلنى أحد. رأيت أن أزود أختى بنصيحة صغيرة فقلت ونحن نعود إلى البيت على مهل.

- دعينى أقل لك شيئاً يا أختاه. أن أوين جريفيث ليس من هذا النوع الذى اعتدت عليه، وإذا لم تتوخى الحذر فسوف تتورطين وتجلبين لنفسك المتاعب، فإن هذا الرجل قد يكون شديد الخطر.

- حقاً؟

وبدا أن هذا الاحتمال قد أطربها فقلت فى اصرار:

- دعيه وشأنه.

- إذن لماذا ينتقل للإفريز المقابل عندما يرانى.

- إن النساء أمرهن عجيب.. إذا ما أصررن على أمر فلن يصرفهن عنه أى شىء آخر. ثم أننى أحب أن ألفت نظرك إلى شىء وهو أنك لن تسلمى من عداء ايميه.

أجابت جوانا:

- أعرف أنها تكرهنى منذ الآن.

وكانت قد تكلمت بعد تفكير طويل. ولكن بدا فى صوتها ارتياح كبير عن احتمالات المعركة المتوقعة. وقلت فى حزم:

- لا تنسى على كل حال أننا أتينا هنا ننشد الراحة والهدوء، وأننى أريد أن أستمتع بهما حقاً.

الراحة والهدوء.. لم أكن أدرى أننا لن نلبث أن نفتقر إليهما بعد قليل.



مسز بيكر

بعد ثمانية أيام من ذلك جاءتنى ماري تسألني أن كنت أستطيع أن أمنح مسز بيكر دقيقتين. وما كان هذا الاسم لم يدلنى على شىء فقد سألتها قائلاً:

ـ ومن هى مسز بيكر؟.. ألا يمكن لجوانا أن تقابلها؟

وأجابتنى مارى عندئذ فقالت أن مسز بيكر هى والدة بياتريس، وأنها تريد أن ترانى أنا شخصياً. وكنت قد نسيت بياتريس، ولم أجد بدا من مقابلة أمها خاصة وأن جوانا كانت قد خرجت. وراحت تقول بمجرد أن استقبلتها:

ـ أننى أشكرك كثيراً يا سيدتى، وأنا سعيدة باستقبالك لى. وقد قلت لبياتريس، وهى تنوح فوق فراشها «إذا كان هناك من يدرى ما يجب أن يفعل فهو مستر بورتون بلا شك، فإننى لا أدرى ما العمل مع هذه الخطابات اللعينة وما تحويه من بذاءات لا عهد لنا بها.

ـ هل أفهم من هذا أن ابنتك تسلمت خطابات أخرى؟

ـ كلا يا سيدى.. ليست هى.. أنها لم تتسلم غير ذلك الخطاب

الذى تركت العمل على أثره.

- أؤكد لك أنه لم يكن هناك أى مبرر لكى تترك العمل.

- لا حاجة بك إلى هذا القول يا سيدى، فإننى أصدقك. ثم إن مارى قالت لى أنك لست من هذا النوع من الرجال. لم يكن الخطاب غير أكاذيب طبعاً، ولكن كان من الأفضل أن تترك بياتريس العمل لأنك تعرف طباع الناس. وتعرف كيف يتكلمون. أنهم يقولون أنه ليس هناك دخان من غير نار، وكنت أرجو أن تنتهى هذه القصة على خير، ولكن خطيبها جورج جاءه أحد هذه الخطابات القذرة. وهو يعمل ميكانيكياً فى الجاراج. والخطاب مملوء بالقذارات التى تدور حول بياتريس. وكيف أنها تلتقى بشاب يدعى توم، وهذا غير صحيح طبعاً. ولكن جورج جن جنونه وجاء إلى البيت وقال لبياتريس أنه لن يطيق ذلك، ولن يسمح لها بأن تخرج مع غيره. وقد ردت عليه فقالت أن كل هذا كذب، ولكنه صرخ فيها يقول أنه ليس هناك دخان من غير نار، وعندئذ راحت المسكينة تبكى بكاء حاراً وعندئذ لم أجد بدا من أن أسرع إليك لعلك تشير على بشىء.

- ولكن لماذا جئت إلى أنا ولم تذهبى إلى البوليس؟

- أنا.. أذهب إلى البوليس؟.. هذا محال. وكان صوتها يحفل باللوم والعتاب. وقلت وقد بدأت أشعر بالضيق:

- ولكن هذه هى النصيحة الوحيدة التى أستطيع أن أقدمها إليك.

قالت بعد صمت يسير:

ومع ذلك فلا بد أن نفرغ من هذه الخطابات، فإنها ستأتى بشر مستطير ذات يوم.

انحنيت إلى الأمام قليلاً، وقلت أسألها:

مسز بيكر، الديك فكرة عمن يكون كاتب هذه الخطابات البغيضة؟

ـ طبعاً، ولست وحدى فى هذا.

ـ ومن هو؟

كنت أحسب أنها ستجد غضاضة فى أن تنطق باسم، ولكنها قالت دون أى تردد:

ـ إنها مسز كلينت طبعاً... وهذا رأى الجميع... ليس هناك أى شك فى أنها مسز كلينت.

وأخبرتنى أن مسز كلينت هذه زوجة لبستانى مسن، ولما سألتها لماذا تظن أنها هى التى تكتب هذه الخطابات اللعينة اكتفت بأن تقول فى توكيد: لأن هذا من شيمها.

وقبل أن تنصرف نصحتها مرة أخرى أن تلجأ إلى البوليس، ولكنها أصرت على الرفض قائلة أنها تخشى أن تصيبها مسز كلينت بمكروه.

وجعلت أفكر فيما روته لى. وعلى الرغم من أن الاتهام كان واهياً فقد انتهى بى الأمر إلى الاعتقاد بأن مسز كلينت هى كاتبة الخطابات المسمومة، مستنداً بذلك إلى رأى القرية الاجماعى. ورأيت أن أتحدث فى هذا مع جريفيث لأنه يستطيع بحكم معرفته لها أن ينصحنى هل أطلع رجال البوليس على شكوك أهالى القرية فيها أم لا.

ودبرت أمرى لكى أمضى إليه فى الوقت الذى يفرغ فيه من استشاراته تقريباً، واستقبلنى فى عيادته بعد أن انصرف آخر مرضاه، وأطلعته على حديثى مع مسز بيكر. واصغى إلى فى اهتمام ثم قال:

- مسز كليت؟... هذا أمر بعيد الاحتمال.

- لماذا يتهمها الرأى العام إذن؟

- أجابنى وهو يبتسم:

لسبب يبدو لى أنك لا تعرفه، وهو أن مسز كليت هى ساحرة القرية.

أطلقت صيحة دهشة فاسترسل يقول:

أعرف أن هذا يبدو غريباً فى العصر الذى نعيش فيه، ولكن هذه هى الحقيقة، فمازال أهالى الريف يعتقدون فى مثل هذه الأشياء. والمعروف فى قريتنا هذه أن مسز كليت لها عين شريرة، وقد ساعدت هى نفسها على انتشار هذه الأسطورة، خاصة وأنها امرأة غريبة الأطوار، لا تحب الخير لأحد.. فإذا ما وقع طفل أو أصيب فى حادث هزت رأسها وقالت «إن ذلك كان لابد واقع لأنه سرق تفاحاً من حديقتى فى الأسبوع الماضى» أو «لأنه ضرب قطتى» بحيث حرصت الأمهات على أبعاد أولادهن عن طريقها ورحن يخطبن ودها فيقدمن لها الهدايا من العسل والفطائر لكى لا ترميهن بسوء. ومن هذا ترى أنهن يعتقدن أنها هى التى تكتب الخطابات.

نظرت إليه مليا ثم قلت:

إذا لم تكن هى كاتبة هذه الخطابات، فمن يكون هز رأسه وقال:

لا أدرى. هذه قصة قذرة، وأخشى أن تنتهى بأسوأ نهاية.

* * *

وعند عودتى إلى البيت وجدت ميجان جالسة فى الشرفة وذقنها فوق ركبتيها. وحيتنى ببساطتها العادية وقالت:

- هالو... أتظن أننى أستطيع أن أدعو نفسى للغداء معكم؟

أجبت: طبعاً.

وتركتها وأسرعت لكى أقول لمارى أن تعد الغداء لثلاثة، ولم تبد أى اعتراض طبعاً. ولكننى فهمت من تصرفها أنها لا تكن أى احترام لميجان. وقالت لى هذه الأخيرة عندما عدت إلى الشرفة:

- ألن أسبب لكما أى ازعاج حقاً؟

- أبداً.

وأخرجت علبة سجائرى، وقدمتها، مفتوحة، إليها، فاضطرم وجهها وأتت بحركة تدل على الرفض قائلة:

- شكراً لك، وأنها لمكرمة منك أن تقدم لى سيجارة، كما لو كنت شخصاً له اعتباره.

سألتها فى طرب:

أولست كذلك؟

هزت رأسها نفياً، ثم غيرت مجرى الحديث، وأرتنى ساقيها المغبرتين وهى تقول لى فى فخر أنها رتقت جوربها. وأنا لست خبيراً فى هذه الناحية، ولكن بدا لى أن الرتق قد تم بنوع من الخيط يختلف لونه عن لون الجورب نفسه. وسألتنى بعد ذلك قائلة:

- هل تقوم أختك برتق جواربها؟

واعترف بأننى بذلت مجهوداً كبيراً لكى أتذكر ذلك ثم قلت:

لا أدرى. أظن أنها تكتفى بشراء جوارب أخرى غير التى تتمزق.

قـالـت: هـذا والحق عـمـل حكيم، ولكننى لا أسـتطيع أن أفـعل هـذا، فـإننى لا أحـصل إلا على أربعين جنيـهـاً طوال العـام، ولا يمكن عـمل الكثير بهذا المبلغ.

وإذ وافقتها على ذلك أردفت تقول:

– لو أن الجـوارب كـانت سـوداء لصبـغت سـاقى بـالحبـر... هـذا مـا كنت أفعله على كل حال وأنا فى المدرسـة. وكـانت مس باثوورتى حولاء فلم تكتشف أمرى أبداً... كانت طريقة عملية.

ـ لست أشك فى هذا.

وساد الصمت. وأخذت أدخن غليونى وأنا أستمتع باللحظة. وفجأة قالت فى حدة لم أتوقعها:

ـ أظن أنك تجدنى بغيضة لا تُحتمل كما يفعل الجميع؟

وكانت دهشتى شديدة بحيث فغرت فمى ووقع الغليون على الأرض وانكسر، وصحت بها:

ـ أرأيت ماذا فعلت؟

ولكن لم يظهر عليها أى استياء لذلك، واكتفت بأن قالت وهى تبتسم:

ـ إذا أردت الحق فإننى أحبك كثيراً.

واعترف أن قولها هذا قد سرنى كثيراً، وانحنيت والتقطت قطع الغليون المكسور ودسستها فى جيبى ثم قلت:

ـ ماذا كنت تقولين قبل هذه الكارثة؟

ـ كنت أقول أنك لاشك تجدنى بغيضة لا أحتمل كما يفعل الجميع.

ولكن الحدة كانت قد اختفت من لهجتها. وسألتها:

لماذا؟

أجابت بلهجة الجد:

لأن هذه هى الحقيقة.

قلت لها أن تكف عن النطق بمثل هذه الحماقات، ولكنها ردت على قائلة:

أعرف أن هذا صحيح، فإننى لست غبية كما يتصور الناس. أما الشىء الذى يجهلونه فهو أننى أعرفهم على حقيقتهم تماماً، وأننى أمقتهم لهذا السبب.

- تمقتينهم؟

- نعم. ولو أنك كنت مثلى وتعرف أنهم ينظرون إليك كما لو كنت حثالة لا ضرورة لها لأحسست بنفس ما أحس به.

- هل أنت واثقة مما تقولين؟.. ألا تتصورين أموراً لا وجود لها؟.. ألا تعانين من انهيار أعصاب؟

هزت كتفيها وقالت:

- كلا. ولم أبعد عن الحقيقة فيما قلت لك. أن أمى لا تحبنى. ولا ريب لأننى أذكرها بأبى وكان شرساً فى معاملته لها. وقد كان الأمر سهلاً يسيراً، وطالما كنت فى المدرسة الداخلية. أما الآن.. أن أمى تفضل أن تكون وحدها مع زوجها وولديها.

قلت فى بطء:

- أظن أن الموقف ليس من السوء كما ترين يا ميجان، ولكن إذا صح ما تقولين فلماذا لا تمضين إلى مكان آخر وترتبين حياتك وفق ما تشائين؟

ابتسمت ابتسامة خافتة، ولم تعد طفلة كما كانت من قبل وقالت:

ـ أتقول لماذا لا أمضى إلى مكان آخر؟.. ولكن كيف أعيش؟

ـ تستطيعين أن تكتسبى حياتك.

ـ وكيف ذلك؟.. وماذا أفعل؟

ـ هناك أشياء كثيرة يمكنك أن تفعليها.. امساك الدفاتر أو الاختزال..

ـ هذه أمور لا أستطيع أن أفهم منها شيئاً.. ثم.. وأمسكت فقلت استحثها..

ـ ثم؟

وكانت قد حولت رأسها واستقر رأيها أخيراً على أن تنظر إلى. كان وجهها شديد الاحمرار، وفى عينيها دموع. وقالت:

ـ ثم لماذا أمضى؟.. أنهم يريدون ارغامى على الرحيل ولا يريدوننى. ولكننى سابقى.. سأبقى لا لشىء إلا لمضايقتهم.. أنهم جميعاً أشخاص قذرون. وأننى أمقتهم. أمقتهم جميعاً وأمقت كيمستوك معهم.. يعتبروننى غبية ودميمة. سوف أريهم.. سوف أريهم؟

وكانت قد استعادت لهجتها الصبيانية التى تثير الشفقة. وسمعت وقع أقدام على الحصى فى الشرفة التى خلف البيت فأسرعت أقول:

ـ انهضى. ادخلى من غرفة الطعام واصعدى إلى الطابق العلوى. وأمضى إلى دورة المياه فى آخر الطرقة أسرعى.

ووثبت واقفة، وما كادت حتى ظهرت جوانا فى أول الطرقة، وصاحت تقول وهى تجلس بجوارى وتجفف وجها بايشارب فى يدها.

ـ يا إلهى.. أن الجو حار جداً اليوم. أنى مشيت كثيراً اليوم لا شىء إلا لكى تكون لى الغلبة على هذا الحذاء اللعين.. أنى فكرت فى شىء يا جيرى.. أظن أنه يجب أن تقتنى كلباً.

ـ هذا رأيى أنا أيضاً.. وبهذه المناسبة، ستتناول ميجان الغداء معنا اليوم.

ـ آه حسناً.

ـ هل تحبينها؟

ـ نعم. فهى أشبه بهؤلاء الأطفال الذين نقرأ عنهم فى القصص الخرافية.. هؤلاء الأطفال الذين يتخلى أهلهم عنهم ويثيرون الرثاء والشفقة.. ولكنى سأصعد الآن إلى دورة المياه.

ـ هذا محال. لأن ميجان فيها الآن.

جلست جوانا. وأخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها، وراحت تتأمل وجهها فيها، وقالت بعد فحص دقيق:

ـ إن هذا الأحمر لا يناسبنى أبداً.

وعادت ميجان فى هذه اللحظة وقد هدأت. وكانت قد غسلت وجهها. وحيتها جوانا قائلة:

ـ إنك أحسنت صنعاً إذا جئت لتناول الغداء معنا.

وأقبلت مارى لكى تقول أن الطعام جاهز فنهضت جوانا قائلة:

ـ هلموا بنا فإننى أموت من الجوع.

وتأبطت ذراع ميجان، ومضت معها إلى غرفة الطعام.



شيئ غير عادى

أرى أننى أغفلت شيئاً هاماً، فإننى لم أتكلم حتى الآن عن مسز دين كالتروب ولا عن القسيس كالب دين كالتروب.

ومع ذلك فإن القسيس وزوجته شخصيتان لهما أهميتهما. ولم التق فى حياتى برجل بعيد عن حقائق الحياة كالقسيس دين كالتروب، فقد كان يصب كل اهتمامه على الكنيسة وشئون الدين. أما زوجته فكانت تختلف عنه اختلافاً كبيراً. كانت لا تهتم أبداً بما لا يعنيها ولكنها كانت مع ذلك على علم بكل ما يدور فى القرية.

وقد استوقفتنى فى شارع هاى ستريت فى غداة اليوم الذى تناولت فيه ميجان الغداء معنا. وقد استغربت منها ذلك لأن من عادتها أن تتنقل وهى تجرى تقريباً. هذا فوق أنها تنظر بعيداً دائماً وهى تمشى بحيث يخيل لك أن بصرها لم يقع عليك.

وصاحت تقول:

- آه!.. أهذا أنت يا مستر بروتون؟..

- فيم كنت أريد أتحدث إليك؟..

ـ آه.. ما هذه الخطابات المسمومة التى نشرتها فى القرية.

احتججت بأننى لم أنشر شيئاً، وأنها كانت موجودة فى القرية قبل قدومنا، أنا وأختى. فقالت:

ـ آه.. هذا صحيح.. أن هذه القصة لا تروق لى، فإن فيها شيئاً غير عادى.

فـإن أهالى القـرية ليسـوا من هـؤلاء الذين يتـراسلون بالرسـائل المجهولة. أنهم حسودون، ولهم عيوبهم طبعاً، ولكن ليس فيهم من هو جدير بأن يفعل شيئاً كهذا. وإذا اقترف أحد مثل هذه النقيصة، فقد كان يجب أن أعرفه ولكن ليست لدى أية فكرة عمن يكون كاتب هذه الخطابات.. ومهما يكن من أمر فإن أمرها مضحك.

ـ هل جاءك خطاب منها؟

ـ بل جاءنى خطابان.. كلا. بل ثلاثة. وقد نسيت مضمونها تماماً. ولكن كان بها حماقات عن كالب وإحدى المدرسات بالمدرسة. وهى حماقات حقاً لأننى أدرى الناس بكالب. وأن هذا ليدهشنى لأن هناك أشياء حقيقية كان فى مقدور الكاتب أن لا يعرف عنها شيئا، وهو أمر عجيب.

ـ وكيف هذا؟

ـ إن فى القرية فضائح كثيرة، وكان فى مقدوره أن يتكلم عنها ولكنه لا يفعل، فلماذا؟

ولزمت الصمت لحظة ثم سألتنى فى حدة عما جاء بخطابى فقلت:

ـ إنه يقول بين ما يقول أن أختى ليست أختى.

ـ وهل هى أختك حقاً؟

وكانت لهجتها تنم عن اهتمام ودى، فصحت أقول:

ـ طبعاً.. أن جوانا أختى بالطبع.

قالت:

ـ هذا يدل على أننى على حق، فقد كان يمكنه أن يجد شيئاً آخر.

وهزت رأسها فى تفكير، وراحت تنظر إلى فى اهتمام وأدركت فجأة لماذا يعمل لها أهالى ليمستوك ألف حساب فقد كان يبدو أنها تعرف أدق الأسرار، ولهذا لا يمكن أن تدرك مدى غبطتى وأنا أسمع من خلفى صوت أيميه جريفيث الحار يقول مخاطباً محدثتى:

ـ صباح الخير يا مود. يسرنى أن ألتقى بك. فقد أردت أن أقترح عليك تأجيل حفلتنا الخيرية..

ـ صباح الخير يا مستر بورتون.

وأسرعت تقول دون أن تترك لى الفرصة لكى أنطق بكلمة واحدة:

سأدخل عند البدال لكى أشترى منه شيئاً ثم آتى إليك.

أجابتها مسز دين كالتروب:

ـ حسناً.

وأردفت تقول بمجرد أن اختفت ايميه داخل المحل:

ـ يا للفتاة المسكينة!

ودهشت إذ رأيتها ترثى لايميه، ولكنها لم تلبث أن عادت إلى ما كان يشغلها وقالت:

ـ نعم يا مستر بورتون. أننى أشعر بشىء من الخوف، فإن هذه الخطابات تدل على أن فى ليمستوك شخصاً تحركه مشاعر من الحقد والكراهية شخص يمكن أن يضرب ضربة عشواء، وأن تصيب ضربته فى الصميم دون أن يدرى أننى لأتساءل ماذا يمكن أن يحدث عندئذ يا مستر بورتون.

وما كنا نتوقع عندئذ أن مخاوفها ستتحقق وبأسرع ما يمكن.

* * *

كانت مارى هى التى جاءتنا بنبأ المأساة، وقد نقلته إلينا فى شىء من الارتياح لأنها كانت تشعر بميل للكوارث، وكانت تظهر على وجهها نشوة غريبة عندما تأتينا بأنباء سيئة.

دخلت غرفة نوم جوانا وألقت بصينية الشاى فوق الطاولة، بجوار الفراش قائلة:

ـ هذا فظيع.. لم أستطع تصديقه عندما سمعت به.

وإذ سألتها جوانا عن الخبر وهى تحاول أن تفتح عينيها أجابت تقول:

لقد ماتت مسز سيمنجتون المسكينة.

صاحت جوانا وقد طار النوم من عينيها:ـ

ماتت!

ـ نعم يا سيدى... ماتت بعد ظهر أمس.. وأسوأ ما هناك هو أنها انتحرت.

ـ كلا.

ويا الذهول فى عين جوانا، فإن مسز سيمنجتون لم تكن من هؤلاء

النساء التى تقدم على مثل هذا الأمر المفجع.

- هذه هى الحقيقة يا سيدتى... إنها انتحرت... ومما لاشك فيه أن المرأة المسكينة اضطرت إلى ذلك.

قالت جوانا وقد خمنت ما حدث.

- لعلك لا تريدين القول...

- نعم يا آنسة... إنك أصبت التخمين... إنها أحد هذه الخطابات القذرة...

- وماذا جاء فيه؟

واضطرت مارى أن تعترف. آسفة، بأنها لا تعرف ذلك. وقالت جوانا فى قوة:

- إنها تقولات شائنة، ولكنى لا أدرى كيف تدفع إلى الانتحار.

أجابت مارى:

- لا ريب أن فيها شيئاً من الحقيقة.

وإذ انصرفت مارى شربت جوانا قدحاً من الشاى ثم ارتدت ثوبها المنزلى وجاءت إلى تنقل الخبر. وفكرت على الفور فيما قاله لى أوين جريفيث، فقد تنبأ بأن شيئاً سوف يقع إن عاجلاً وإن آجلاً. وقد صح ما توقعه وانتحرت مسز سيمنجتون. ومعنى هذا أنه كان فى حياتها سر خفى كانت تحرص على أن لا يعرفه أحد، ولكنها لم تكن قوية الإرادة، وكانت مريضة وضعيفة، فلم تستطع احتمال الصدمة.

ولكزتنى جوانا بمرفقها وسألتنى فيم أفكر، فأطلعتها على مخاوف

أوين فقالت فى شىء من الحدة:

- طبعاً. كان يعرف أن شيئاً كهذا سوف يقع... إن هذا الرجل يتصور أنه يعرف كل شىء.

- إنه رجل ذكى جداً.

- بل قل إنه مغرور... مغرور جداً.

وأردفت تقول بعد لحظة صمت:

- إنها صدمة عنيفة لزوجها ولابنتها... أننى أتساءل كيف ستتلقى ميجان هذا النبأ... ألا تظن... هل يروق لك.. أننى أتساءل إذا لم يكون الأفضل أن تبقى يوماً أو يومين معنا... أنها صدمة شديدة العنف بالنسبة لها.

قالت:

- فى مقدورنا أن نقترح عليها ذلك.

واستطردت جوانا تقول:

- ليس الأمر صعباً بالنسبة للولدين، لأن المربية سوف تعنى بهما، ولكن ميجان رقيقة الشعور، ولن تستطيع احتماله فى مثل هذه الظروف.

وكان هذا رأيى. وقد تصورت السى هوارد تواس ميجان على مر الأيام بكلمات تافهة وتقدم لها العديد من أقداح الشاى فى محاولة لرفع روحها المعنوية. وكنت قد فكرت أنا نفسى فى أن أدعو الفتاة لقضاء بضعة أيام معنا، وسررت جداً إذ خطرت نفس الفكرة لجوانا.

ومضينا إلى بيت سيمنجتون بعد أن فرغنا من تناول الإفطار. وكنا

نعانى شيئاً من الانفعال، فقد خشينا أن تعزى زيارتنا إلى فضول غير لائق. ولحسن الحظ كان أوين جريفيث خارجاً من البيت فى نفس اللحظة التى وصلنا فيها. وكان يبدو متجهماً ومهموماً. وقال لى فى ود ودهشت له:

- صباح الخير يا بورتون. يسرنى أن أراك. لقد وقع ما توقعته، وأنه لشىء محزن.

- صباح الخير يا دكتور جريفث.

نطقت جوانا بهذه العبارة فى صوت مرتفع كما لو كانت تخاطب شخصاً به صمم. وأجفل جريفث. ولكنه رد على تحيتها وهو مضطرم الوجه. وقالت له أختى بكل بساطة:

- حسبتك لم ترنى.

تمتم يقول وقد ازداد احمراراً:

- هذا صحيح... كنت مشغول البال ولم أرك.

عادت تقول فى غير رحمة:

- ومع ذلك فإن حجمى طبيعى.

نظرت إليها عاتباً وأسرعت أقول:

- كنت أتساءل أنا وأختى إذا لم يكن من الأنسب أن نستضيف ميجان يوماً أو يومين، فما رأيك؟... لا أريد أن أبدو كأننى أتدخل فيما لا يعنينى، ولكن الأيام القادمة ستكون شديدة الوقع على هذه الفتاة. فهل تظن أن سيمنجتون يقبل هذا الاقتراح؟

قال بعد لحظة تفكير:

ـ أظن أن هذه فكرة رائعة. أنها فتاة شديدة الحساسية، ومن الأوفق إبعادها عن هذا الجو بعض الوقت. أن مس هولاند تبدى نشاطاً كبيراً ولم تفقد جأشها، ولكن لديها ما يكفيها مع الولدين ومع سيمنجتون نفسه... أن الرجل المسكين محطم تماماً.

سألته:

ـ هل انتحرت حقاً؟

ـ ليس هناك أى شك فى ذلك. أنها تركت ورقة صغيرة كتبت فيها تقول «أننى لا أستطيع». وقد جاء الخطاب فى بريد بعد ظهر أمس، ووجدنا الظرف على الأرض بجوارها، والخطاب مكوراً فى موقد المدفأة حيث ألقت به. وقد ملأه مرسله بالأكاذيب ويقول فيه ضمن ما يقول أن ابنها كولان ليس ابن سيمنجتون.

قلت مذهولاً:

ـ هل تظن أن هذا صحيح؟

هز جريفيث كتفيه وقال:

ـ أننى لا أقيم بالقرية إلا منذ خمس سنوات، ولا أستطيع أن أؤكد شيئاً. ولكن المعروف أن سيمنجتون وزوجته زوجان سعيدان. وصحيح أن كولان الصغير لا يشبه أباه، فهو أشقر، ولكن هذا لا يدل على شىء فإن المعروف عادة أن الأولاد يشبهون أجدادهم على الأكثر.

قلت:

ـ من المحتمل أن عدم شبه الولد لأبيه هو الذى حمل كاتب

الخطاب على مثل هذا الاتهام. أنه لم يكن واثقاً من شيء، ولكنه رأى أن يجازف على كل حال.

قال جريفيث:

ـ هذا رأيي، فإن كاتب هذه الخطابات لا يأتى باتهامات محددة، وإنما يأتى بها كيفما أتفق.

قالت جوانا:

ـ ويحدث أحياناً أن يصيب الحقيقة، لأنه لو لم يكن الأمر كذلك لهذه المرة لما انتحرت.

أجاب جريفيث:

ـ لست متأكداً تماماً، فإن صحتها لم تكن كما يجب منذ بضعة أيام. وكانت تعانى من انهيار شديد، ومن المحتمل أنها أصيبت بصدمة عنيفة عندما قرأت ذلك الخطاب، ولعلها قالت أن زوجها لن يصدقها أبداً إذا حاولت أن تنكر هذا الاتهام، وأظن أنها أقدمت على الانتحار وهى فى حالة يأس وغير متمالكة لقواها العقلية تماماً.

قالت جوانا:

ـ معنى هذا أنه انتحار فى لحظة جنون مؤقت كما يقول رجال القانون ـ تماماً. وأعتقد أن هذه هى النظرية التى سأدلى بها فى جلسة التحقيق.

واستأذنتنا فى الانصراف عقب ذلك، فى حين دخلنا، أنا وجوانا البيت، إذ كان الباب مفتوحاً. وفى الداخل، سمعنا صوت مس هولاند، وكانت تقول:

- أؤكد لك يا مستر سيمنجتون أنه يجب أن تتناول شيئاً. إنك لم تتناول العشاء أمس، ولا الافطار صباح اليوم. وإذا لم تأكل شيئاً فلن تستطيع الصمود... لقد قال الطبيب أنك بحاجة إلى كل قواك.

أجاب سيمنجتون فى صوت واهن ضعيف:

- إنك كريمة جداً يا مس هولاند.

- إليك هذا القدح من الشاى الساخن.

قال: - شكراً لك يا مس هولاند لكل ما بذلت من أجلنا. إنك رائعة.

- هذه مكرمة منك يا مستر سيمنجتون. أننى لا أريد ألا أن أخدم. ولا تشغل بالك بالولدين، فسوف أهتم بهما. وقد أشرفت على الخدم، وإذا كانت هناك خطابات تريد املاءها أو مكالمات تليفونية، فلا تتردد.

واستدارت فى هذه اللحظة ورأتنا، وكنا لانزال واقفين بالبهو، فأسرعت إلينا على الفور. وخاطبتها جوانا قائلة:

- هل أستطيع أن أتحدث إليك لحظة؟... أننى لا أريد ازعاج مستر سيمنجتون.

هزت مس هولاند رأسها بالموافقة، وتقدمتنا إلى غرفة الطعام حيث قالت:

- كانت الصدمة عنيفة لمستر سيمنجتون وغير متوقعة... لم نكن نتوقع شيئاً كهذا، وأرى الآن أنها كانت غريبة الأطوار فى الأيام الأخيرة. وكنت أظن أن ذلك بسبب صحتها على الرغم من أن الدكتور جريفيث كان يقول أن صحتها جيدة... كانت...

قاطعتها جوانا قائلة:

ـ إننا أتينا لكى نسأل إذا لم يكن فى استطاعة ميجان أن تقضى بضعة أيام معنا... هذا إذا كانت تقبل طبعاً.

وبدا أن هذا الاقتراح أثار دهشة مس هولاند، ولكنها قالت:

ـ ميجان؟ الحق أننى لا أدرى... إنها فتاة غريبة الأطوار هى الأخرى... ولكن... لابد لى أن أهتم بالولدين... وهما الآن مع الطاهية... ثم هناك مستر سيمنجتون، وهو بحاجة إلى رعاية تامة... ويجب أن أهتم بأمور أخرى كثيرة كذلك بحيث لا أستطيع أن أكرس شيئاً من وقتى لميجان... أظن أنها فوق، ويبدو لى أنها تحاول الهرب من الجميع... لا أدرى إذاً...

ولم أسمع البقية، فقد نظرت جوانا إلى وغمزتنى خفية فأسرعت بالخروج من الغرفة فى صمت وسكون. وصعدت إلى الطابق الأول، ووجدت ميجان فى غرفة شبه مظلمة، وكانت متكومة فوق أريكة، وتبدو كأن الخوف قد شل حركاتها، وفكرتنى بحيوان مذعور تكوم فى مخبأ مؤقت. وقلت فى رفق:

ـ ميجان!

ونظرت إلى وهى جامدة فى مكانها، كما لو أنها لم تستطب وجودى. وعدت أقول:

ـ ميجان!... أننى جئت، أنا وجوانا، نسألك إذا كنت تحبين الإقامة معنا بعض الوقت.

أجابت فى صوت أجش:

ـ الإقامة معكما؟... فى بيتكما؟

- نعم.

- أصحيح ما تقول؟

- نعم يا بنيتى.

راحت ترتجف. وكان منظرها يدعو إلى الرثاء حقاً. وقالت:

- أوه... خذنى من هنا، أرجوك... لو تعرف كم أشعر بأننى شقية وتعيسة!

وبعد دقائق عدت أنا وجوانا إلى البيت، ترافقنا ميجان وقد أخذت معها حقيبة صغيرة أودعتها ما تحتاج إليه.



إننى لا أستطيع

بعـد ثلاثة أيام انعـقـدت جلسـة التحقيق، وقد حضرها جمع غفير، وثبت فيها أن مسز سيمنجتون ماتت فيما بين الساعة الثالثة والرابعة من بعد الظهر. وكانت وحدها بالبيت.

وكان مستر سيمنجتون لايزال موجوداً فى مكتبه، وكان اليوم يوم أجازة الخدم، وكانت مس هولاند قد خرجت مع الولدين إلى الحديقة فى حين خرجت ميجان بدراجتها.

ولم يكن هناك ريب فى أن الخطاب جاء بعد الظهر، وأن مسز سيمنجتون أخذته من صندوق البريد وقرأته، ثم خرجت فى لحظة جنون إلى كشك البستانى وأخذت كمية من السيانور الذى يستخدم فى قتل الزنابير، وإذابته فى كوب من الماء بعد أن كتبت فى ورقة صغيرة: أننى لا أستطيع...

وأدلى أوين جريفث بأقواله فى نفس المعنى الذى ذكره لنا أنا وجوانا. وجاءت النتيجة كما كنا نتوقع، فقد أجمع أعضاء هيئة

التحقيق على أن مسز سيمنجتون انتحرت فى لحظة جنون.

وفيما نحن نخرج من قاعة التحقيق، سمعنا الناس يتحدثون، وكان أحدهم يقول: لا يوجد دخان من غير نار... ومن المؤكد أنه كان هناك شيء ما ولولا ذلك ما انتحرت...

وعدت إلى البيت كارها ليمستوك وضيق أفق أهاليها وشائعتهم المغرضة.

* * *

من العسير أن يتذكر المرء الأحداث حسب تسلسلها الحقيقى. ولكن أهم حدث وقع بعد ذلك هو زيارة القوميسير ناش لنا، وإن كانت هناك بعض المقابلات التى سبقت زيارته لنا، وإذا كنت أتحدث عنها قبل زيارة القوميسير فذلك لأنها تلقى أضواء على بعض الشخصيات المشتركة فى هذه القضية.

وقد أقبلت ايميه جريفيث إلى البيت فى صباح اليوم التالى لجلسة التحقيق، وكانت تتفجر صحة وعافية، كما هى الحال معها دائماً. ولما كانت جوانا فى الخارج مع ميجان فقد اضطررت إلى استقبالها. وبادرتنى تقول بعد تبادل تحية الصباح:

- علمت أن ميجان موجودة معكما.

قلت: - هذا صحيح.

- هذا عمل طيب من ناحيتكما. ولكن أظن أنها متضايقة بما فيه الكفاية. وقد جئت لكى أقول لكما أن فى استطاعتها أن تقيم عندنا إذا أردتما، وأننى واثقة أننى سأجد وسيلة لكى تكون نافعة فى البيت.

نظرت إليها فى اشمئزاز وقلت:

ـ إنك كريمة جداً حقاً. ولكننا سعيدان جداً بوجودها معنا، وأظن أنها تجد ما يشغل أوقاتها.

ـ لست أشك فى هذا. ولكنها، على كل حال، فتاة متخلفة قليلاً...

ـ أما أنا فإننى أجدها متوقدة الذكاء.

نظرت ايميه جريفيث إلى فى دهشة وصاحت:

ـ هذه أول مرة أسمع فيها مثل هذا القول، فإنك إذا تحدثت إليها نظرت إليك فى غموض كأنها لا تفهم شيئاً.

ـ لا ريب أنها تفعل ذلك لأن الحديث لا يثير اهتمامها.

ـ إذا صح هذا فإنها لتكون سيئة الأدب حقاً.

ـ هذا جائز، ولكن لا دخل لهذا بذكائها.

عادت ايميه جريفيث تقول فى صوت حاد:

ـ مهما يكن من أمر فلابد لها من شىء تشغل به وقتها ويجعلها تحس بحلاوة الحياة. لا يمكنك أن تدرك مدى ما تشعر به الفتاة من تغيير عندما تنتمى إلى فرقة المرشدات. وقد كبرت ميجان بحيث لا يجب أن تضيع وقتها فى الكسل وفى عبث لا طائل منه.

قلت:

ـ ما كان فى وسعها أن تفعل غير ذلك فإن أمها كانت تعاملها كما لو أنها كانت فى الثانية عشرة من عمرها.

أتت ايميه جريفيث بصوت أشبه بالشخير وقالت:

- أننى أعرف ذلك، ولم أكن أوافقها أبداً على هذه الطريقة. ولكن المرأة المسكينة ماتت الآن، ولا يجب أن نتكلم عنها بسوء. إنها كانت مثلاً كاملاً للمرأة الذكية، ولم تكن تعرف شيئاً فيما عدا البريدج وإشاعة الأقاويل والاهتمام بولديها على الرغم من أن المربية كانت هى وحدها التى تهتم بهما. ويجب أن أعترف بأننى كنت أحتفظ دائماً برأى حسن عن مسز سيمنجتون، ولم أشك أبداً فى الحقيقة.

- الحقيقة؟

احمر وجهها وقالت:

- تلك الفضائح التى عرفناها أثناء التحقيق. لقد أحزننى ذلك كثيراً من أجل ريك سيمنجتون... كان الأمر فظيعاً بالنسبة له حقاً.

اعترضت قائلاً:

- ولكن ألم تسمعيه يقول أنه لا يوجد ظل من الحقيقة فى كل ما قيل، وأنه شديد الثقة مما يقول.

- ما كان فى وسعه أن يقول غير ذلك. أن واجب كل رجل أن يدافع عن ذكرى زوجته، وهذا ما فعل.

وأردفت تقول بعد لحظات من الصمت:

- أننى أعرف ريك سيمنجتون منذ وقت طويل.

وأدهشنى منها هذا التصريح وقلت:

- ولكن أخاك قال لى أنه لم يأت للإقامة هنا إلا منذ بضع سنوات فقط.

- هذا صحيح. ولكن ريك سيمنجتون كان يزورنا حيث كنا نقيم.

ونحن أصدقاء قدامى. وهو رجل شديد الإباء والتحفظ، ولكنه حساس وغيور.

ـ لا عجب إذًا إذا كانت زوجته قد خافت أن يرى الخطاب الذى جاءها أو أن تحدثه به. ولا ريب أنها خشيت أن تدفعه الغيرة إلى الاعتقاد بجرمها.

نظرت مس جريفيث إلى فى ازدراء وقالت:

ـ هل تظن أن هناك امرأة فى العالم تنتحر بالسم خوفاً من اتهام باطل؟

ـ لقد اعتقد قاضى التحقيق ذلك، وكذلك أخوك، فقد...

قاطعتنى قائلة:

ـ إن الرجال كلهم يتشابهون. إن الضرورى بالنسبة لهم هو انقاذ الظواهر. أما أنا فلا يمكن خداعى، فعندما تتسلم امرأة، ليس هناك ما تلام، عليه رسالة من غير توقيع، فكل ما يمكن عمله هو أن تضحك وأن تلقى بها فى النار. وهذا هو نفس ما فعله..

وترددت لحظة قبل أن تكمل عبارتها قائلة:

ـ ما كنت أفعل.

وهكذا استدركت الأمر بلباقة، ولكننى كنت واثقاً تماماً من أنها أوشكت أن تقول «هذا هو نفس ما فعلت». ورأيت أن أقطع الشك باليقين فقلت وأنا أبتسم:

ـ إذن فقد تسلمت أنت أيضاً خطابا.

ولم يسعها إلا أن تعترف، فقد كانت من تلك النسوة اللاتى يأنفن من الكذب وقالت:

ـ نعم. تسلمت خطابا، ولكنه لم يثر فى نفسى أى جزع.

ـ أكان خطاباً خبيثاً؟

وكنت قد تكلمت بكل رفق، شأن الرجل الذى تعرض لنفس المشاكل والهموم وأجابتنى تقول:

ـ طبعاً. فإن هذه الخطابات خبيثة دائماً. ما أن قرأت بضع كلمات حتى فهمت ما هناك وألقيت به فى النار على الفور.

ـ ألم يخطر لك أن تذهبى إلى البوليس؟

ـ كلا. رأيت أن من الأوفق أن لا أعلق عليه أية أهمية.

رأيت أن أغير مجرى الحديث.فقلت وأنا أعود إلى ميجان:

ـ هل تعرفين الموقف المالى لميجان؟... لست أسأل بدافع الفضول، وإنما لأننى أحب أن أعرف إذا كان من الضرورى أن تكسب قوت يومها.

ـ لن أزعم هذا، فإن جدتها لأبيها خلفت لها دخلاً يفى بجميع احتياجاتها فيما أعتقد. وحتى إذا كانت أمها لم تترك لها شيئاً فإن ريك سيمنجتون سيضمن لها سقفاً تعيش تحته... كلا... إن المسألة بالنسبة لى مسألة مبدأ.

ـ كيف هذا؟...

ـ يجب على كل امرئ أن يشتغل... رجلاً كان أو امرأة. فليس هناك أفضل من العمل. إن البطالة خطيئة لا تغتفر، ويكفى أن أباها...

وأمسكت ولزمت الصمت مكرهة، ولكننى قلت أستحثها:

ـ ماذا عن أبيها؟ ماذا فعل؟... أما زال على قيد الحياة؟

ـ إذا أردت الحقيقة فإننى لا أدرى. كل ما أعرفه هو أنه كان رجلاً حقيراً، غير طبيعى... قضى جزءاً من حياته فى السجن، ولهذا لا يدهشنى أن تكون ميجان غير متزنة.

قلت محتجاً:

ـ إن ميجان فتاة عاقلة متزنة مثلى ومثلك. وأكرر لك أنها متوقدة الذكاء. وهذا رأى أختى أيضاً، وهى تحبها كثيراً هى الأخرى.

ـ لا ريب أن أختك تشعر بالضجر والسأم هنا. نطقت ايميه بالعبارة الأخيرة فى رفق، ولكننى على الرغم من ذلك، تأكدت أنها لا تحب أختى أبداً. وأردفت تقول:

ـ إننى أتساءل كيف خطر لكما أن تأتيا للإقامة فى هذا الجحر المفقود.

أجبت: ـ أمر الطبيب.

* * *

التقيت بسيمنجتون فى نفس اليوم، فى المدينة. وقلت له:

ـ أظن أنه ليس هناك ما يمنع من أن تبقى ميجان معنا بعض الوقت. ستكون زميلة لأختى التى حرمت من أصدقائها وتجد نفسها وحيدة.

قال: ـ ميجان؟... هل تتحدث عن ميجان؟... أنها لمكرمة منكما أن تستضيفاها.

أحسست، ابتداء من هذه اللحظة بكراهية شديدة نحو سيمنجتون، لم أستطع التغلب عليها أبداً. فقد كان واضحاً أنه نسى ميجان تماماً.

وما كنت لأشعر بأى استياء من ناحيته لو أنه لا يحبها، أما أن يتجاهلها فلا. فهناك أناس لا يحبون الكلاب، ولكنهم يطيقونها فى بيوتهم مع ذلك، ولا يشعرون بها إلا إذا جاءت وتمسحت فى أقدامهم، وهم إما يسبونها عندئذ وأما يداعبونها. وكانت مشاعر سيمنجتون نحو ميجان من هذا النوع. وقد حقدت عليه كثيراً لعدم اهتمامه بها. وقلت أسأله:

ـ ماذا تنوى أن تفعل بها؟.

ـ بميجان؟

ونظر إلى مذهولاً، وأجاب يقول بعد لحظة:

ـ يا الهى! لا شىء. سوف تعيش معنا فى البيت، فهى فى بيتها على كل حال.

* * *

أقبلت اميلى بارتون لزيارتنا بعد أن فرغنا من تناول الشاى، وأخذنا نتحدث عن الحديقة نحو نصف ساعة، ثم انتقلت إلى موضوع آخر فقالت وقد خافتت من صوتها:

ـ أرجو أن لا تكون ميجان المسكينة قد تأثرت كثيراً بسبب هذه المسألة الفظيعة.

ـ أتعنين موت أمها؟

ـ طبعاً. وأعنى الظروف التى أحاطت بموتها كذلك. أننى واثقة أن مسز سيمنجتون... أن ما جاء فى ذلك الخطاب لم يكن إلا فرية بغيضة لا ظل لها من الحقيقة، ولا أستطيع أن أفهم لماذا يكتب صاحبنا المجهول مثل هذه الخطابات.

ـ لا ريب أنه مختل العقل.

ـ إنه لأمر محزن.

ـ ليس أمراً محزناً فحسب وإنما هو أمر فظيع. قالت مس بارتون فى صوت كان أشبه بالهمس:

ـ يقول الناس أن مسز كليت هى التى تكتب هذه الخطابات، ولكننى لا أستطيع أن أصدق ذلك.

هززت رأسى غير مصدق. واستطردت هى تقول واضطرابها يزداد من وقت لآخر:

ـ هذه أول مرة يرسل فيها أحد مثل هذه الخطابات فى ليمستوك. كانت قبل ذلك مدينة صغيرة ترفرف عليها السعادة، وأننى لأتساءل ماذا كانت تقول أمى فى هذا الصدد؟... أحمد الله على أنه وفر عليها هذه المحنة.

وسألتها فى شىء من التردد إذا كانت قد تسلمت خطابا من هذا النوع فاحمر وجهها وصاحت:

ـ أوه... كلا. يا له من افتراض بشع.

واعتذرت لها، ولكنها كانت لاتزال واقعة تحت تأثير انفعال شديد عندما غادرتنى بعد دقائق.

وعندما عدت إلى البيت وجدت جوانا واقفة أمام المدفأة، وقد أشعلت النار، فقد كان الطقس لايزال بارداً... وكانت تمسك فى يدها خطابا لوحت به قائلة:

ـ إننى وجدت هذا الخطاب فى صندوق البريد، ولكن موزع البريد لم يأت به، وإنما وضعه شخص فى الصندوق. وهو يبدأ بهذه الكلمات: «أيتها الدمية الدميمة المخضبة».

ـ وماذا يقول غير ذلك؟...

كشرت جوانا قائلة:

ـ البذاءات التى تعرفها.

وألقت بالخطاب فى الموقد، فأسرعت والتقطته قبل أن تمسك به النار وأنا أصيح:

ـ لا تحرقيه... أنه مستند قد نحتاج إليه.

ـ وكيف ذلك؟

ـ سوف نقدمه إلى البوليس.

* * *

أقبل القوميسير ناش لزيارتنا فى صباح اليوم التالى. وقد أحسست بالميل إليه على الفور. وكان طويل القامة، عسكرى المظهر، يبدو عليه الاتزان والهدوء. وقال بعد أن قدم نفسه:

ـ أظنك تعرف يا مستر بورتون السبب الذى أتيت من أجله؟

ـ أظن أنه تلك الخطابات المجهولة؟

ـ تماماً. هل جاءك خطاب منها.

ـ نعم. عقب قدومنا هنا بقليل.

ـ وماذا كان مضمونه؟

بذلت جهداً ذهنياً وأعدت عليه فحوى الخطاب بالحرف تقريباً. وأصغى القوميسير إلى وهو جامد الوجه ثم قال:

ـ آه... وهل احتفظت بهذا الخطاب؟

ـ كلا. وأنى آسف لذلك، ولكننى حسبته تعبيراً لمشاعر شخص حقود ساءه أن نأتى للإقامة فى المدينة.

هز القوميسير رأسه دلالة على الفهم وقال:

ـ هذا أمر يؤسف له.

قلت:

ـ ولكن أختى تسلمت خطاباً أمس التقطته من النار قبل أن تمسك به.

ـ أشكرك يا مستر بورتون... إنك قمت بعمل جميل حقاً.

وأتيت بالخطاب من درج المكتب، وقرأه ناش فى اهتمام ثم قال:

ـ هل كان الخطاب الأول يشبه هذا؟... أعنى مظهره الخارجى؟

ـ نعم. بقدر ما أذكر.

ـ بنفس الاختلاف الذى بين الظرف وبين الرسالة نفسها؟

ـ نعم. كان الظرف مكتوباً على الآلة الكاتبة. أما الرسالة نفسها فكانت عبارة عن كلمات مطبوعة الصقت فوق قطعة من الورق.

دس ناش الخطاب فى جيبه وقال:

هل لك أن تصحبنى حتى القسم يا مستر بورتون؟ سنعقد اجتماعاً هناك يوفر علينا الكثير من الوقت.

وفى القسم، وجدت سيمنجتون وجريفيث، وكانا قد سبقانا هناك.

وكانا يتحدثان مع شرطى بملابس ملكية له فك ضخم عريض قدمه ناش إلى قائلا:

ـ المفتش جريفس، وقد أقبل من لندن لمساعدتنا. إنه اخصائى فى مثل هذا النوع من القضايا.

ابتسم المفتش جريفس ابتسامة صغيرة مريرة. وقلت لنفسى أن تكريس الوقت فى البحث عن أناس يكتبون خطابات مجهولة عمل بغيض، ولا ريب أن هذا هو سبب حزن المفتش. وقال فى صوت حزين:

ـ إن كل هذه القضايا تتشابه. والخطابات كلها واحدة، وتقول نفس الأشياء، وبنفس الكلمات.

وكان هناك عدد من الخطابات موضوعا فوق المكتب. وقال ناش:

إن من العسير الحصول على الخطابات، فإن الذين يتلقونها يلقونها فى النار أو لا يريدون الاعتراف بأنهم تلقوا شيئا منها، وهذا غباء منهم، ولكنهم لا يريدون أن يتدخل الناس فى شئونهم.

وأخرج الخطاب الذى اعطيته له وناوله جريفس، فقرأه هذا ثم وضعه مع الرسائل الأخرى وهو يقول:

ـ هذا جميل جدا. أن لدينا الآن خطابا تلقاه مستر سيمنجتون منذ أكثر من شهرين، ولدينا خطاب تلقاه الدكتور جريفي وآخر لمسز جينش ورابع لمسز مودج، زوجة الخباز وخامس لمسز جنيفر كلارك، الخادمة... أضف إليها ذلك الذى تلقته مسز سيمنجتون وذلك الذى تلقته مس بورتون ثم الذى تلقاه مدير البنك.

قلت:

مجموعة جميلة!

قال جريفس:

ـ ولكننى أؤكد لك أنها تذكرنى كلها بخطابات أخرى غيرها، فهذا الخطاب مطابق لذلك الذى تلقته صانعة القبعات، وهذه صورة طبق الأصل لذلك الذى اهتممنا به فى مقاطعة نورثمبرلند، وقد كتبتها طالبة. أؤكد لك إننى أعطى الكثير لكى أرى شيئا جديدا.

سأله سيمنجتون:

ـ هل كونت لنفسك رأيا عن كاتبها؟

ـ هناك بعض النقاط المشابهة فى كل منها ، فإن كلمة منها مكونة من حروف مطبوعة متفرقة أخذت من كتاب قديم مطبوع فى نحو سنة ١٨٣٠ . وقد أقدم المرسل على هذه الطريقة حتى لا يستطيع أحد التعرف عليه بعد أن أصبح من اليسير للخبراء معرفة أصحاب الخطوط من خطهم. ولا توجد على الخطابات أية بصمات هامة لأن أيد كثيرة تداولتها فى مصلحة البريد، ولا تدل إلا على أن المرسل كان يلبس قفازا . والعناوين مكتوبة على آلة كاتبة من طراز وندسور رقم ٧، بها حرفان متآكلان هما حرف الألف وحرف التاء. وقد ألقيت بعض الخطابات فى بريد ليمستوك وألقى البعض الآخر فى الصناديق الخاصة بأصحابها باليد، وهذا يدل على أن القضية محلية. وقد كتبتها امرأة، ومن رأيى أنها امرأة متوسطة السن، وأظن أنها لم تتزوج بعد.

وساد صمت قصير قطعته قائلا:

- أظن أن الآلة الكاتبة هى فرصتنا الوحيدة، فلن يكون من العسير علينا فى بلدة صغيرة كهذه أن نعثر عليها.

قال المفتش جريفس:

- هذا صحيح. وقد اكتشفنا الآلة الكاتبة فعلا وهى آلة قديمة أهداها مستر سيمنجتون إلى المعهد النسائى بليمستوك، وهى موجودة تحت تصرف الجميع.

- ألم تدلكم طريقة الكتابة على شىء؟

- كلا. كل ما استدللنا عليه هو أن العناوين بأصبع واحدة.

هذا يدل على أن الكاتب غير متمرن على الآلة الكاتبة.

- أو أنه متمرن ويحاول خداعنا. أن الكاتب يعرف كل الخدع، وأستطيع أن أزيد فأقول إنه امرأة، وإنها تعرف كل الحيل، وإنها فوق ذلك سيدة.

- ماذا تعنى؟

خرج السؤال رغما عنى، فقد قال أن الكاتب امرأة ثم عاد فقال إنها سيدة، ولم أر الفرق بين الكلمتين لأن دلالتهما واحدة، ولكن القوميسير ناش تطوع فقال:

- ليكن مفهوما أن المفتش يعنى بكلمة سيدة أن المرأة تلقت حظا من الثقافة وإنها تعرف حروف الكتابة وتملك موهبة خاصة..

ولزمت الصمت وقد تلقيت صدمة، فإن المدينة كانت صغيرة، وقد خطر لى على الفور أن الكاتبة ربما تكون مسز كليت أو امرأة أخرى من نفس النوع.. امرأة شريرة وحاقدة وعلى شىء من الغباء. وقال سيمنجتون.

ـ هذا يضيق نطاق المشبوهين، فلا يمكن أن يكونوا أكثر من عشرة أشخاص على الأكثر.

ـ هذا رأيى أنا الآخر.

صاح سيمنجتون:

ـ لا أستطيع أن أصدق هذا. لعلكم تتذكرون ما قلت أثناء جلسة التحقيق. ليكن معلوماً أننى لم أقل ذلك لمجرد الدفاع عن ذكرى زوجتى العزيزة. وأننى أريد أن أقول الآن بكل صدق واخلاص أننى أعتبر الاتهامات التى جاءت بذلك الخطاب الذى تلقته زوجتى باطلة ولا أساس لها من الصحة. إنها اتهامات بشعة، وقد كانت زوجتى مخلوقة شديدة الحساسية.. وشديدة الحرص.. ولا ريب أنها تلقت بذلك الخطاب ضربة هائلة.. وأنتم تعرفون أن صحتها لم تكن على ما يرام.

ونهض سيمنجتون وهو يرتجف لفرط الانفعال والغضب، واستطرد يقول:

ـ أرجو أن تلقوا القبض على الشيطان الذى كتب هذه البذاءات بأسرع ما يمكن.. إن هذه المرأة، إذا كانت امرأة كما تقولون، قد قتلت زوجتى، تماماً كما لو كانت قد طعنتها بخنجر.

وأردف يقول بعد صمت قصير:

ـ وإنني لأتساءل بماذا يمكن أن تشعر الآن؟ وخرج على أثر ذلك. ونظرت إلى القوميسير والمفتش في شيء من الضيق وسألتهما إن كانا بحاجة إلى، فقد ثقل على الجو فجأة وأردت أن أتنفس الهواء النقي. وأجابني ناش قائلاً:

ـ يمكنك أن تنصرف يا مستر بورتون، ولكن افتح عينيك جيداً وقم بالدعاية من أجلنا وقل لجميع من حولك أن يأتونا بكل ما يتلقون من خطابات من هذا النوع.

وعدته بما يريد، وأردفت أقول أن ما من أحد في ليمستوك إلا وقد تلقى خطابا من هذه الخطابات الملعونة، فقال جريفس:

ـ هذا ما أريد أن أتأكد منه. هل تعرف إذا كان هناك أحد لم يتلق رسالة من هذا النوع.

ـ هذا سؤال عجيب. إن الأهالي لا يدلون إلى بأسرارهم، ومع ذلك..

وأعدت عليه الحديث الذي دار بيني وبين مس اميلي بارتون، فقال:

ـ قد تفيدنا هذه المعلومة.

وغادرت القسم، أنا وأوين جريفيث. وأطلقت صيحة ارتياح وقلت:

ـ يا إلهي!.. هذا مكان كئيب، الهواء فيه مثقل بالسموم، على الرغم من أنه هادئ وبرئ كجنة الفردوس.

قال جريفيث:

ـ كان في الجنة، هي الأخرى، ثعبان.

سألته:

- هل تعتقد أنهم يعرفون شيئاً يا جريفيث؟... هل يعرفون إلى أية ناحية يوجهون أبحاثهم؟

أجاب:

- لا أدرى. ولكننى كبير الثقة بناش، فهو رجل قدير، وإن كان لا يمكن معرفة ما يدور فى ذهنه.

وكنا قد بلغنا شارع هاى ستريت فتوقفت أمام مكتب سمسار العقارات وقلت:

- أظن أنه يجب أن أدفع القسط الثانى من الإيجار مقدماً. كم أود ان أسدده الآن وأن أغادر المدينة بأسرع ما يمكن غير عابئ بما دفعت من مال.

ألقى أوين يده على ذراعى قائلاً:

- لا تدخل.

- لماذا؟

لم يجب على الفور، وعندما تكلم قال:

- لعلك على حق على كل حال. إن ليمستوك مكان غير سليم فى الوقت الحالى، وقد تلحق هذه القصص الضرر بك أو بأختك.

- إن جوانا لا تحفل بهذا الأمر على الاطلاق، وأن لديها من قوة الاحتمال ما يمكنها من مواجهة كل شىء. وإذا كان هناك من لا

يستطيع الاحتمال فهو أنا، ويجب أن أعترف بأننى أصبحت أنوء بكل هذه القصة.

ـ لست وحدك فى ذلك.

ووضعت يدى على أكرة الباب وقلت:

ـ ولكننى لن أرحل مع ذلك، فإن فضولى أقوى من جبنى، وسأبقى لأننى أريد أن أعرف كيف ينتهى كل هذا.

ودخلت.

وتركت سكرتيرة آلتها الكاتبة وخفت لاستقبالى، وكانت متدللة جداً بشعرها المموج، ولكننى وجدتها أكثر ذكاء من الفتاة ذات النظارات التى أدخلتنى إلى مكتبها. ولم ألبث أن عرفت فى تلك السكرتيرة مس جينش، السكرتيرة السابقة لسيمنجتون. وسألتها:

ـ إنك اشتغلت قبل ذلك فى مكتب المحامى سيمنجتون؟

ـ نعم. ولكننى فضلت مغادرته. إن المرتب هنا أقل ولكن هناك أشياء أغلى من المال. وأظنك تعرف ذلك.

ـ ليس هناك أى شك فى هذا.

واستطردت تقول فى صوت كالهمس:

ـ أننى تلقيت إحدى هذه الرسائل البشعة، وهى تتهمنى بأقذع الكلمات بوجود علاقة بينى وبين مستر سيمنجتون. ولحسن الحظ أننى أعرف واجبى، وقد أسرعت وذهبت إلى البوليس، على الرغم من

أن هذه الخطوة كانت بغيضة جداً إلى نفسى. وهناك شكرونى، وقالوا لى أننى أحسنت صنعاً. وقد وجدت أن أسلم شىء هو أن أضع حداً للأقاويل فتركت خدمة مستر سيمنجتون.. لم يكن بينى وبينه أية علاقة على الإطلاق.

قلت فى ارتباك:

ـ هذا مفهوم طبعاً.

ـ إن الناس أشرار.. أليس كذلك؟.. أشرار جداً..

وعلى غير غرض منى التقت عيناى بعينيها، واكتشفت شيئاً أثار دهشتى عندئذ، فإن مس جنيش كانت تستمتع برواية هذه القصة المزعجة.

وغادرت المكتب وأنا أتساءل إذا لم تكن مس جنيش هى التى تكتب هذه الخطابات؟



الصدمة

عندما بلغت البيت، وجدت مسز دين كالتروب تتحدث مع جوانا، وكانت زوجة القس تبدو مريضة ومرهقة. وقالت تخاطبنى:

ـ إن هذه القصة البشعة أصابتنى بأكبر صدمة فى حياتى. يا للمرأة المسكينة!

قلت:

ـ إنها مسكينة حقاً وجدت نفسها مضطرة إلى الانتحار.

ـ آه.. هل تتكلم عن مسز سيمنجتون؟

ـ نعم. أما كنت تتكلمين عنها؟

هزت رأسها وقالت:

ـ طبعاً. هذه قصة محزنة جداً. ولكن كان لابد أن يقع هذا، لهذا السبب بالذات أو لأى سبب آخر.

ـ طبعاً يا عزيزتى، فعندما يرى المرء أن الانتحار هو الوسيلة

الوحيدة. للفرار من مشاكله، يقدم عليه فى أول فرصة. وإذا أردت الحقيقة، فإنها كانت تفتقر إلى الشجاعة. والواقع أننى كنت أعتقد أنها أنانية بعض الشيء وأنها ليست ذكية جداً، ولكنها كانت تعرف، على الرغم من ذلك، كيف تسوس حياتها بيد أننى أرى الآن أننا لا نعلم الشيء الكثير عن الناس الذين نعتقد أننا نعرفهم.

ـ ولكن عمن كنت تتكلمين عندما قلت، يا للمرأة المسكينة..؟

ـ كنت أفكر فى تلك الشقية التى كتبت الخطابات.

ـ لو أننى مكانك لادخرت عطفى ورثائى لمخلوقات جديرات بذلك حقاً.

انحنت مسز كالتروب نحوى وألقت يدها على ركبتى قائلة:

ـ ولكن، ألا تفهم؟.. ابذل جهداً وتصور مبلغ تعاسة هذه المرأة لا شيء إلا لاضطرارها إلى الجلوس أمام مكتبها لكتابة مثل هذه البذاءات. لا ريب أنها تحس بأنها وحيدة ومقطوعة عن الجنس البشرى بهذا السم الذى يسرى فى عروقها ويدفعها إلى كتابة ما تكتب. لا يمكن لأحد أن يتصور مبلغ ما تعانيه تلك المرأة من ضيق معنوى. إن من مبادئى أن لا أتدخل فى شئون الغير، ولكننى فى هذه الحالة بالذات أود لو أستطيع أن أفعل شيئاً.. لهذا السبب أرثى لتلك المرأة المسكينة.

ونهضت تبغى الانصراف.. ولم أستطع أن أشاركها مشاعرها، ولكن الفضول دفعنى إلى أن ألقى عليها هذا السؤال:

ـ ألا تعرفين من يمكن أن تكون هذه المرأة المسكينة يا مسز

كالتروب؟

أجابتنى:

ـ إن لدى فكرة فى هذا الموضوع، ولكن من يدرى؟ لعلى مخطئة.

وبعد أن انصرفت سألتنى جوان تقول:

ـ هل تظن أن المرأة التى كتبت هذه الخطابات تعيسة حقاً؟

ـ كل ما أدريه هو أننى أرثى لضحاياها.

وأرى الآن أن من العجيب أننا، بمحاولتنا تصور الحالة الذهنية لكاتبة الخطابات، أخطأنا جميعاً فى تقديراتنا فإن جريفيث رأى فيها امرأة بشعة تطفح بشراً وسروراً بإلحاق الأذى بغيرها. ورأيتها أنا امرأة يؤرقها ضميرها فى حين لم تشك مسز دين كالتروب فى أنها امرأة تعيسة، ولم يخطر لأى منا أن يفكر فى أنها كانت خائفة.

ومع ذلك فقد كان الأمر بديهياً.

لقد اتخذت القضية شكلاً آخر بموت مسز سيمنجتون فإن موتها وضع كاتب الخطابات فى موقف يحتمل أنه لم يكن يريده وأنه أصبح يخشى اكتشاف أمره، فلم يكن فى استطاعته عندئذ أن يزعم أن الأمر مجرد دعابة بعد أن هاج البوليس وماج، وبعد أن أرسلت اسكوتلانديارد خير أخصائيها.

لقد أصبح الأمر بالنسبة له مسألة حياة أو موت واستولى عليه الخوف.

ولأن الخوف قد استولى عليه فقد أصبحت هناك أمور لا مفر

منها.

كان هذا واضحاً تماماً. ولكننى لم أدرك ذلك إلا بعد وقت طويل.

* * *

هبطنا فى صباح اليوم التالى، أنا وجوانا، لتناول الإفطار متأخرين. وساءنى إن وجدت ايميه جريفيث واقفة بعتبة الباب تثرثر مع ميجان. وبادرتنا تقول:

ـ هل صحوتما أخيراً أيها الكسولان؟.. أننى صحوت منذ ساعات.

وانضمت ميجان إلينا فى غرفة الطعام، وتبعتها ايميه. وقالت تخاطب جوانا:

ـ أننى أتيت لكى أسألك إذا كان يمكن أن تقدمى بعض الخضر إلى الصليب الأحمر. إذا وافقت فسوف أرسل أوين بالسيارة..

وصلصل جرس التليفون فى هذه اللحظة فأسرعت إلى الردهة لكى أرد عليه، تاركاً جوانا تتحدث فى شئون الخضر مع مس جريفيث. وأمسكت السماعة وقلت:

ـ ألو.

وسمعت صوتاً فى آخر الخط يقول:

ـ آلو.. دقيقة واحدة لا أكثر.. أريد مارى.

ـ بكل تأكيد.. من أقول لها؟

ـ قل لها أننى أجنس.. أجنس وأدل.

وناديت مارى بصوت مرتفع، وكانت تشتغل فى الدور الأول، وأقبلت وفى يدها مكنسة قائلة:

ـ نعم يا سيدى.

ـ أجنس وادل تطلبك فى التليفون.

نظرت مارى إلى مصعوقة كما لو كانت لا تصدق، وتمتمت تقول:

ـ أجنس وادل.. ما الذى تريده هذه الغبية؟ وتركت المكنسة جانباً وهبطت السلم مسرعة، فى حين عدت أنا إلى غرفة الطعام. وكانت مس جريفيث قد فرغت من مهمتها مع جوانا وتفاهمت معها عن أنواع الخضر التى تستطيع أن تأخذها. وما إن انصرفت حتى نظرت جوانا إلى وهى تتنفس الصعداء قائلة:

ـ إنها أتعبتنى. إن هذه المرأة أمرها غريب.. دائمة الحركة، لا تكل ولا تتعت أبداً.

وأقبلت مارى عندئذ وقالت تحدث جوانا وهى تكاد تذوب خجلاً:

ـ إننى أعتذر إليك يا سيدتى، فإن الفتاة التى كلمتنى فى التليفون ما كان يجب أن تفعل. إنها تعرف تماماً أننى لا أستخدم التليفون، وإننى آسفة يا سيدتى خصوصاً وإن السيد قد أزعج نفسه.

قاطعتها جوانا تقول فى رفق:

ـ ولكن ليس هناك ما تؤاخذين عليه يا مارى. فيم يستخدم التليفون إذا لم يكن للكلام.

نظرت مارى إليها مشدوهة كما لو كانت لا تصدق أذنيها وقالت:

- هذه أشياء لم تقع فى هذا البيت أبداً، وما كانت مس اميلى لتسمح بذلك. وأننى أكرر اعتذارى يا سيدتى، ولكن أجنس وأدل المسكينة حائرة ولا تدرى ماذا تفعل.. إنها كانت تخدم فى هذا البيت تحت إشرافى، وكانت فى السادسة عشرة من عمرها، وقد جاءتنا من الملجأ، وهى يتيمة لا أهل لها، وقد اعتادت أن تسألنى النصح والمشورة.

وسكتت لحظة ريثما تسترد أنفاسها ثم عادت تقول:

- وأرجو أن تتكرم سيدتى وتسمح لى بمقابلتها بعد ظهر اليوم فى المطبخ، وإن أقدم لها فنجاناً من الشاى. أنها تأخذ أجازتها اليوم، وتريد أن تنتهز الفرصة وتأتى لكى تستشيرنى فى أمر يهمها. ولولا ذلك ما سمحت لنفسى..

قالت جوانا تقاطعها فى دهشة:

- لا أرى خطأ! لماذا لايأتى أحد لكى يتناول الشاى معك.

أجفلت مارى وقالت:

- هذا شىء لم يقع من قبل فى هذا البيت يا سيدتى. لم تسمح مس اميلى أن استقبل أحداً فى المطبخ أبداً.

وهزت كتفيها وانصرفت ولسان حالها يقول أن الدنيا تغيرت.

وخرجنا إلى الحديقة، ووجدنا ميجان تتمشى فى طرقاتها وهى مشغولة البال. وأقبلت نحونا وقالت:

- أظن أننى سأعود إلى البيت اليوم.

- ماذا؟

استطردت تقول فى حزم وقد اضطرم وجهها:

ـ نعم. انكما كنتما كريمين معى. ولا ريب أننى ضايقتكما كثيراً. أننى سعدت جداً بوجودى معكما، ولكن يجب أن أعود. ومهما يكن فهناك بيتى، ولا يمكن للمرء أن يغيب عن بيته. ولهذا سأعود صباح اليوم.

وحاولت أنا وجوانا أن نثيها عن رأيها، ولكنها كانت عنيدة، واضطرت أختى أن تمضى إلى الجاراج أخيراً لكى تخرج السيارة، فى حين صعدت ميجان لتعد حقيبتها.

ولا يسعنى الآن إلا الاعتراف بأن رحيل ميجان قد ضايقنى أشد الضيق.

* * *

لا ريب أن صحبتنا أثقلت عليها أخيراً، وأعترف بأن لها الحق فى ذلك، فهى لم تكن بصحبة ممتعة بالنسبة لها. ففى بيتها ستجد نفسها مع الولدين ومع السى هوارد.

وجاء أوين جريفيث لزيارتنا بعد الغداء بقليل، وقد جاء بسيارته، وراح البستانى يحملها بسلال الخضر التى أعدها من أجل الصليب الأحمر. وفى أثناء ذلك دعوت أوين للدخول لكى يتناول كأساً.

وعندما عدت إلى غرفة الطعام ومعى زجاجة الكونياك التى ذهبت لاحضارها وجدت جوانا تقوم «بنمرتها» العادية المعروفة. وكانت قد جلست على الأريكة بجواره وقد اختفى كل أثر للعداء الذى بينهما، وراحت تصغى إليه فى اهتمام وهو يحدثها عن عمله ويذكر لها لماذا لم

يتخصص، ولماذا آثر الطب العام مؤكداً لها فى صدق وإخلاص أنه يجد كل متعته فى العناية بأمثاله.

ولجوانا عيوبها، ولكنها تعرف كيف تصغى، وبعد الكأس الثالثة، كان يحدثها عن مهنته مستخدماً اصطلاحات طبية لا يفهمها غير الطبيب، ولكنها كانت توليه كل اهتمامها كما لو كانت تفهم كل ما يقول.

وأحسست بالضيق، فإن النساء شياطين. ولم يرق لى أن أرى جريفيث الرقيق يسلمها قياده بهذه السهولة.

وكنت قد دعوت أوين لكى يتناول الغداء معنا فرفض وعادت جوانا فدعته من جديد، وألحت. واحمر وجه جريفيث وقال أنه كان يود أن يبقى لولا أن أخته تنتظره فقالت جوانا:

ـ سنتكلم معها فى التليفون وسأقول لها.. ولم تترك له الوقت لكى يرد، وأسرعت إلى الردهة.. ولم تلبث أن عادت بعد قليل وعلى شفتيها ابتسامة وقالت أنها دبرت كل شىء.

وتناول جريفيث الغذاء معنا، وخيل لى أنه اغتبط لأننا أرغمناه على ذلك. وتحدثنا عن الكتب والمسرح والموسيقى والرسم والنحت. ولكننا لم نتكلم كلمة واحدة عن ليمستوك ولا عن الخطابات المجهولة، ولا عن موت مسز سيمنجتون. وقد أبدى أوين سروراً كبيراً بالحديث. واعترف أنه كان محدثاً لبقاً.

* * *

قالت جوانا ونحن نتناول العشاء فى تلك الليلة: ـ ماذا فعلنا بميجان بالله حتى تتركنا هكذا فجأة..؟ ترى هل أغضبناها فى شىء؟

ـ أبداً. ولكن ربما أحست بالضيق..

ـ لا أظن ذلك.. يخيل لى أن ايميه قالت لها شيئاً.

ـ أتعنين صباح اليوم؟.. عندما كانتا تتحدثان على عتبة الباب؟

ـ نعم. أنهما تبادلتا حديثاً طويلاً، وايميه تتدخل دائماً فى شئون الغير.

ودخلت مارى فى هذه اللحظة فسألتها جوانا إذا كانت قد أحسنت استقبال صديقتها فأجابت وهى واقفة منتصبة القامة:

ـ أشكرك يا سيدتى. ولكن أجنس لم تأت.

ـ آه. أننى آسفة.

ـ لا أهمية لهذا يا سيدتى. ومهما يكن فهى التى اتصلت بى، ولم أتصل أنا بها، متذرعة بأن لديها شيئاً تريد أن تستشيرنى فيه. ولكنها لم تأت، و ـ بل إنها لم تتصل لكى تعتذر.. إن فتيات اليوم لا يعرفن آداب السلوك.

حاولت جوانا أن تواسيها فقالت: ـ لعلها أحست بوعكة منعتها من المجيئ.. ألم تتصلى بها بالتليفون؟

ـ كلا يا سيدتى. إن فى مقدورها أن تسئ التصرف فهذا شأنها، أما أنا فسوف أنتظر حتى ألتقى بها لكى أقول لها رأيى فيها.

وغادرت مارى الغرفة فى وقار. وعندما اختفت ضحكنا، أنا وأختى معاً. وانتقلنا بعد ذلك إلى الحديث عن الخطابات، وتساءلنا إذا كان القوميسير ناش والمفتش جريفس أحرزا نجاحا ما فى تحقيقاتهما.

وقالت جوانا:

ـ لقد مر أسبوع الآن على انتحار مسز سيمنجتون.. وكان يجب أن يعثروا على شيء ما.. بصمات أو أى شيء يؤدى إلى معرفة ذلك الكاتب المجهول.

أجبتها فى شرود.. كانت كلماتها «لقد مر أسبوع الآن» قد أيقظت فى ذهنى أفكاراً مبهمة أثارت اهتمامى لأول مرة. ولاحظت جوانا أننى لا أصغى إليها فقالت:

ـ ما الخبر يا جيرى؟.. فيم تفكر؟

لم أجب، وتركت العنان لأفكارى من جديد. كانت مسز سيمنجتون وحدها فى اليوم الذى ماتت فيه. كانت وحدها لأن اليوم كان يوم أجازة الخدم. وقد مر على ذلك أسبوع بالتمام والكمال.

وأعادت أختى سؤالها فقلت لها: ـ هل يأخذ الخدم أجازة كل أسبوع يا جوانا؟

ـ نعم. لماذا؟

ـ وهل هو نفس اليوم من كل أسبوع؟

ـ نعم. عادة.

وحدجتنى مشدوهة وهى لا تدرى ما الذى أهدف إليه. ودققت الجرس. ولما جاءت مارى سألتها:

ـ أين تعمل اجنس وادل؟

ـ فى بيت مستر سيمنجتون يا سيدى.

ألقيت نظرة إلى ساعة الحائط. كانت تشير إلى العاشرة والنصف، وقالت: -

- لابد أن تكون قد عادت الآن.

وأسرعت إلى الردهة تتبعني ماري التي بدا الغضب في عينيها، وجوانا وهي شديدة الحيرة. وقالت لي هذه الأخيرة وأنا أدير قرص التليفون:

- ماذا تفعل يا جيري؟

- أريد أن أتأكد أنها عادت.

وكانت السي هولاند هي التي ردت على في آخر الخط فقلت لها:

- يؤسفني أنني أزعجتك. أنا جيري بورتون. هل عادت الخادمة أجنس؟

كنت وما إن ألقيت سؤالي هذا حتى أدركت أنني زججت بنفسي في حماقة كنت في غنى عنها، إذ كيف أفسر هذا السؤال إذا كان كل شيء على ما يرام؟

أما كان من الأوفق أن أترك لجوانا مهمة الاستفسار؟.. أنني قدمت لأهالي ليمستوك إشاعة جديدة سأكون أنا وأجنس وادل مادة لها.

وأجابتني السي هولاند في دهشة كانت طبيعية من جانبها:

- لابد أن تكون قد عادت طبعاً.

- هل يمكن أن تتأكدي من ذلك يا مس هولاند؟

ألقت السي السماعة لكي تذهب إلى غرفة الخدم، وعادت بعد

دقيقتين وقالت

ـ آلو.. مسز بورتون..؟ إنك على حق.. فهى لم تعد بعد.

أحسست على الفور بأن حدسى لم يخدعنى.. وتناهت بعض الأصوات إلى أذنى، ثم تكلم سيمنجتون فقال: ـ

ـ آلو.. بورتون.. ما الخبر؟

ـ إن خادمتكم أجنس لم تعد بعد.

ـ هكذا قالت لى السى هولاند فهل حدث لها حادث.

ـ لا أعتقد أن فى الأمر حادثاً.

ـ ألديك من الأسباب ما يحملك على أن تخشى أن يكون قد وقع لها شىء؟

وقلت له أنه لن يدهشنى أن يكون شىء من هذا قد حدث..



إستغاثة

كان نومى مضطرباً فى تلك الليلة، فقد أزعجتنى عناصر القضية المختلفة، ولو أنى عرفت كيف أفحصها كما يجب فلعلنى كنت أهتدى إلى الحقيقة عندئذ.

ورحت أتقلب وأجزاء المعضلة تتراقص فى ذهنى، فقد كانت الخطابات كلها متشابهة، وكتبت كلها بأسلوب واحد وعلى نمط واحد. وكنت أعرف أن هناك أثراً لابد وأن يهدينى إلى كاتبها، وانتهى بى الأمر إلى أن غلبنى النوم أخيراً، ولكننى استيقظت على رنين التليفون المتواصل فجلست فى فراشى، وألقيت نظرة إلى ساعتى فإذا بها تشير إلى السابعة والنصف، فأسرعت إلى الردهة وتناولت السماعة، وسمعت صوتاً يقول:

ـ آلو!..

ـ آه.. أهى أنت؟

وأطلقت تنهيدة ارتياح، فقد كان صوت ميجان، ولكنه كان يدل على الاضطراب والخوف. وعادت تقول بعد لحظات:

ـ تعال.. أرجوك أن تأتى.

ـ أننى قـادم.. هل تسـمعين؟.. أننى قـادم حالاً. وأعـدت السـمـاعة مكانها وصعدت السلم أربعاً أربعاً واندفعت إلى غرفة جوانا قائلاً:

ـ جو.. أننى ذاهب إلى بيت سيمنجتون.

رفعت جوانا رأسها الشقراء من فوق الوسادة، ودعكت عينيها وهى تسألنى عن الخبر فقلت:

ـ لا أدرى.. إنهـا الصـغـيـرة مـيـجـان.. تكلمت فى التليـفـون، وهى شديدة الاضطراب.

ـ أنتظر قليلاً إذن.. سأنهض وأذهب بك فى السيارة.

ـ لا حاجة بك إلى ذلك.. سأقودها أنا.

ـ هل تستطيع ذلك؟

ـ طبعاً..

وقدت السيـارة فعلاً، ولكن الأمـر كان شـاقاً جداً بالنسبة لى. ولا ريب أن ميجان كانت تنتظر قدومى على أحر من الجمـر لأنها خرجت من البـيت ركضاً، وتعلقت بى بيـديها الاثنين. وكانت شـاحـبة الوجـه، ترتجف كورقة فى مهب الريح. وصاحت.

ـ آه.. أنك أتيت.. أنك أتيت.

أجبت:

ـ تمالكى روعك أيتها الحمقاء الصغيرة.. نعم، أننى أتيت ما الخبر؟

ـ أننى.. أننى وجدتها.

ـ أجنس.. وأين ذلك؟

وازدادت اضطراباً وهى تقول: ـ

ـ تحت السلم.. فى الدولاب الذى نضع فيه مضارب الجولف وأدوات الصيد. كانت هناك.. وكانت باردة كالثلج.. كانت ميتة.

سألتها: ـ ما الذى دفعك إلى فتح الدولاب؟

ـ لا أدرى. فإننا تساءلنا مساء أمس، بعد مكالمتك التليفونية أين يمكن أن تكون أجنس ذهبت. وانتظرنا بعض الوقت، ولما لم تأت أوينا إلى الفراش، ولكننى نمت نوماً مضطرباً وصحوت مبكرة. ولم يكن أحد قد صحا بعد، فيما عدا روز الطاهية. كانت شديدة الغضب من أجنس لأنها لم تأت. وكنت أتناول طعام الافطار فى المطبخ عندما عادت روز وهى مشدوهة وقالت أنها ذهبت إلى غرفة أجنس ووجدت فيها كل ثيابها بما فيها تلك التى ترتديها عند الخروج. وعندئذ خطر لى أنها لم تخرج من البيت اطلاقاً، وبحثت عنها ذات اليمين وذات الشمال. وفتحت الدولاب الذى تحت السلم.. ووجدتها فيه.

ـ أظن أنك أبلغت البوليس.

ـ نعم.

هم موجودون الآن. وقد اتصل بهم زوج أمى تليفونياً.. أما أنا.. فلم يكن بوسعى أن أفعل أى شىء.. واتصلت بك.. فهل تحقد على؟

ـ طبعاً لا.. ولكن ألم يفكر أحد فى أن يقدم لك قليلاً من الكونياك

بعد ذلك؟.. أو قليلاً من القهوة أو الشاى؟

لم يخطر لأحد أن يفعل ذلك طبعاً. ولعنت كل من فى البيت.. لم يفكر ذلك البدين سيمنجتون إلا فى الاتصال برجال البوليس. ولم يخطر للطاهية، ولا لالسى هولاند أن تفكر فى الصدمة التى يمكن أن تحس بها فتاة حساسة على أثر اكتشاف كهذا. وقلت:

- تعالى معى.. سنقوم بدورة فى المطبخ.

ووجدت روز هناك فقلت لها:

- قدمى قدحاً من الشاى الساخن لمس ميجان فإنها بحاجة إليه، وأضيفى إليه قليلاً من الكونياك، ولا تنسى أنها هى التى عثرت على الجثة.

وتركت ميجان فى رعاية الطاهية، ثم غادرت المطبخ وأنا أستغرب أمر هذا البيت الذى ينسى فيه الجميع هذه الفتاة المسكينة. والتقيت بالسى هولاند فى الردهة. ولم تبد عليها أية دهشة لرؤيتى، وإنما قالت لاهثة:

- هذا فظيع يا مستر بورتون.. من يمكن أن يكون فعل بها هذا؟

- فى الأمر جريمة إذن؟

- ليس هناك شك فى هذا. لقد ضربها القاتل على رأسها من الخلف.. إن هذا فظيع.. وقد تجمد الدم فوق شعرها.. كانت مكومة فى الدولاب. وأننا نتساءل من الذى فعل بها هذا، ولماذا؟.. مسكينة أجنس.. أنها لم تؤذ أحداً أبداً.. أرجو أن تلتمس لى عذراً، إذ يجب أن أمضى إلى الولدين، فإن مستر سيمنجتون لا يريد أن يعرضهما لأى

انفعال.

وما أن اختفت عن ناظرى حتى سمعت بابا يغلق فى الدور الأول، ولم يلبث أن هبط القوميسير ناش ومن خلفه سيمنجتون. وقال الأول:

ـ آه.. مستر بورتون؟.. كنت سأتصل بك الآن.. يسرنى أن ألتقى بك.

ولم يسألنى، ذلك الوقت على الأقل، ما الذى أتى بى. وتحول إلى سيمنجتون وقال:

ـ سأستخدم هذه الغرفة..

وكانت الغرفة عبارة عن صالون صغير تطل نافذتها الوحيدة على واجهة البيت. وقال المحامى:

ـ طبعاً.

وكان متمالكاً لأعصابه، وإن كان بادى الأعياء. وعاد ناش فقال:

ـ لو كنت مكانك يا مستر سيمنجتون لتناولت غداء دسماً. سوف تجد نفسك، أنت ومس هولاند ومس ميجان أحسن بكثير بعد تناول فنجان من القهوة باللبن وبيض بالبيكون، فلا يجب أن يظل الإنسان بمعدة فارغة أمام جريمة قتل.

وكان يتكلم فى رفق كما لو كان طبيب العائلة. وحاول سيمنجتون أن يبتسم. وأجاب بأنه سيعمل بمشورته فوراً. ودخلنا الصالون الصغير، أنا وناش، وقال هذا الأخير بعد أن أغلق الباب خلفنا.

ـ إنك وصلت سريعاً.. كيف عرفت النبأ؟

قلت له أن ميجان كلمتنى فى التليفون. وأصغى إلى فى اهتمام وقال:

- قيل لى أنك تكلمت فى التليفون أمس بخصوص هذه الخادمة الصغيرة يا مستر بورتون، فكيف حدث هذا؟

كان الأمر يبدو غريباً حقاً. وقد حدثته عن المكالمة التى تمت بين أجنس وبين مارى وعن فنجان الشاى الذى لم تأت لتناوله فقال:

- أننا إزاء جريمة قتل، والمسألة الآن هى معرفة ماذا كانت هذه الفتاة تعرف. هل قالت شيئاً لمارى؟.. أعنى شيئاً محدداً؟..

- لا أعتقد.. ولكن يمكنك أن تسألها.

- هذا ما أنوى عمله.. بعد أن أفرغ من هنا.

- هل تعرف ما حدث بالتحديد؟

- تقريباً.. كان أمس يوم أجازة الخادمتين..

- الخادمتين؟

- نعم. كانت تقوم بالخدمة هنا خادمتان... أجنس وروز.. وكانتا تخرجان معاً فى نفس اليوم. كانتا تعدان عشاء بارداً وتجهزان المائدة قبل خروجهما. وكانت مس هولاند هى التى تعد الشاى فى ذلك اليوم. وروز من مواليد قرية نيذر ميكفورد، ولكى تذهب إليها فى ذلك اليوم كانت تستقل أوتوبيس الساعة الثانية والنصف. وقد خرجت أمس، فى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والعشرين لكى تستقل الأوتوبيس المذكور. وخرجت إلى هولاند والولدان فى الثالثة إلا الربع، وتبعتهما

ميجان هنتر على دراجتها بعد ذلك بخمس دقائق. ومنذ تلك اللحظة بقيت أجنس وحدها بالبيت. وقد فهمت أنها تغادر البيت عادة فيما بين الثالثة والثالثة والنصف.

- وترك البيت وحده؟

- هذا أمر طبيعى فى البلدة، ومن النادر أن يغلق أحد بابه بالمفتاح. كانت أجنس وحدها إذن فى الساعة الثالثة إلا عشر دقائق، ولكنها لم تغادره، وهذا أمر أكيد لأنها لاتزال ترتدى مئزرتها عندما عثروا على جثتها.

- أظن أنك تعرف متى قتلت بالتقريب.

- إن الدكتور جريفيث لا يريد أن يورط نفسه، ولكنه يقول أن الوفاة وقعت فيما بين الثانية والرابعة والنصف. وهذا كل ما يستطيع قوله رسمياً.

- وكيف قتلت؟

- ضربها القاتل على رأسها من الخلف فى بادئ الأمر وأفقدها الرشد ثم غرز سيخا رفيعاً وحاداً فى أسفل جمجمتها فماتت على الفور.

أخذت نفساً طويلاً وقلت:

- من الذى قتلها؟.. ولماذا؟

أجاب الفوميسير فى بطء:

- لن نعرف ذلك بالتحديد أبداً. ولكن فى مقدورنا أن نخمن..

- هل كانت تعرف شيئاً؟

- من المؤكد أنها كانت تعرف شيئاً؟

- ألم تقل شيئاً لأحد؟

- لا أظن. وروز الطاهية، تزعم أنها كانت تبدو شديدة الاضطراب منذ موت مسز سيمنجتون، وكلما مر بها الوقت زاد اضطرابها وحيرتها، وكانت تقول أنها لا تدرك ماذا تفعل، وأظن أن أجنس كان يؤرقها شيء. ويجب أن أعترف يا مستر بورتون بأننى أعرف شيئاً لا تعرفه أنت. ففى بعد ظهر اليوم الذى ماتت فيه مسز سيمنجتون كان المفروض أن الخادمتين غير موجودتين بالبيت، فقد كان اليوم يوم أجازتهما.. والواقع أن أجنس قد عادت ثانية.

- هل أنت متأكد مما تقول؟

- كل التأكيد، فقد كانت تنوى قضاء اليوم مع صديقها الشاب فريد رندل الذى يشتغل فى محل الأسماك. والمحل يغلق يوم الأربعاء مبكراً عن العادة، وكان رندل يسرع لملاقاة أجنس ليتنزها ما كادا يلتقيان فى ذلك اليوم حتى دب بينهما الشجار، فقد تلقى رندل خطاباً من تلك الخطابات المسمومة يتهم فيه كاتبه أجنس بأنها تحب كثيرين غيره، وتشاجرا، وعادت أجنس إلى البيت وهى مصممة على أن لا تخرج معه إلا إذا جاء واعتذر لها.

- وبعد؟

- إن المطبخ يقع فى الناحية الخلفية من البيت، ولكن مسكن الخدم يطل على الواجهة. وللبيت مدخل عمومى إذا ما اجتزته ففى امكانك.

أمـا أن تمضى إلى البـاب الأمـامى أو إلى البـاب الخلفى المخـصص للخدم.

وأمسك لحظة ثم استطرد يقول:

ـ وثمة شىء آخر، وهو أن الخطاب الذى تلقـته مسـز سيمنجتون بعد ظهر ذلك اليوم لم يأت عن طريق البريد.. لقد ألصق كاتبه طابعاً مستعملاً على الظرف وقلد خاتم مكتب البريد ببراعة فائقة لكى يبدو أن هيئة البريد هى التى قامت بتوزيعه.

ـ أظن أن معنى هذا أن شخصاً جاء ووضعه بنفسه فى صندوق بريد البيت قبل مرور الساعى؟

ـ هو ذلك. أن موزع البريد يمر هنا فى الساعة الرابعة إلا الربع. ونظريتى تقوم على الآتى: كانت أجنس تنظر من النافذة تترقب مجيئ صديقها، وكانت ترجو أن يأتى للاعتذار لها ومصالحتها.

قلت مكملاً:

ـ ورأت الشخص الذى ألقى الخطاب فى الصندوق.

ـ الأمر كما تقول يا مستر بورتون. أظن أن هذا هو ما حدث؟

ـ ولكن إذا صح ذلك فإن أجنس المسكينة كانت تعرف من هو كاتب الخطابات.

ـ أظن ذلك.

ـ إذن لماذا..

وتركت عبارتى معلقة فقال ناش:

- من رأيى أنهــا لم تدرك مـعنى مــا رأته على الفــور. لقــد وضع شخص ما خطاباً فى صندوق بريد البيت، ولم تكن تتصور أبداً أن هذا الشــخص هـو الذى يرسـل الخطابات المجـهـولة. كـان هـذا الشــخص بالنسبة لها فوق كل الشبهات. ولكنها، فيما بعد، وإذ فكرت فى الأمر مليا بدأت تسـاورها الشكوك وتتسـاءل مـاذا يجب أن تفعل. ومن الذى يستطيع أن يقدم لها النصح. وفكرت فى مارى بارتريدج، الخادمة.

قلت:

- هـذا هو تفـسـيـر كل شىء إذن. وقـد اكـتـشف كـاتب الخطـابات نيتها... نعم... ولكن كيف ذلك؟

- أرى أنك لم تألف حيـاة الريف يا مسـتر بورتون. أن الأنبـاء تنتشـر فيه بطريقة أشبه بالمعجزة. وفى الحالة التى تهمنا بالذات، كانت هناك تلك المكالمة التليفونية، فمن الذى كان موجوداً معك أثناء هذه المكالمة؟

أجبت بعد تفكير قصير:

- أنا الذى رفعت السماعة، وناديت مارى، وكانت فى الدور الأول.

- هل قلت لها أن أجنس هى التى تطلبها؟

- نعم.

- ومن الذى سمعتك؟

- أختى ومس جريفيث.

- مس جـريفيـث؟... ومـاذا كانت تفعل عندكما؟ أخـبـرته فى إيجاز فقال:

ـ وهل عادت إلى ليمستوك بعد ذلك على الفور؟

ـ كلا... مرت بمستر باى قبل ذلك.

قال ناش:

ـ آه... بمس جريفيث ومستر باى كان فى مقدور البلدة كلها أن تعلم بهذه المكالمة بعد ساعة واحدة.

ـ هل تظن أن مس جريفيث ومستر باى جديران بإذاعة خبر كهذا لا أهمية له؟

أجاب ناش:

ـ فى بلدة ليمستوك كل الأنباء سواء، فإذا أصيبت والدة الخياطة ببرد بسيط فتأكد أن كل البلدة ستعرف ذلك. وربما سمعت مس هولاند وروز حديث أجنس. وهناك أخيراً فريد رندل، ويحتمل أن يكون قد أخبر كل من هب ودب أن أجنس قد عادت إلى البيت.

تطلعت من النافذة... تصورت شخصاً يلقى خطاباً فى صندوق البريد بالبيت خلسة... امرأة لا وجه لها.. ومع ذلك فقد كان يجب أن أعرفها. واستطرد ناش يقول:

ـ مهما يكن من أمر فإن الرقعة تضيق. إن عدد المشبوهين يتناقص شيئاً فشيئاً، وأصبحوا الآن قلة.

ـ هل تعتقد ذلك؟

ـ يمكننا أن نستبعد من شبهاتنا جميع النساء اللاتى كت يعملن بعد ظهر أمس، ومنهن المدرسة، فهى لم تغادر المدرسة قبل الساعة

الخامسة، والممرضة لأننى أعرف مواعيدها. أننى لم أشتبه فيها أبداً على كل حال. ولدينا الآن قواعد صلبة نستطيع أن نعمل استناداً عليها. أولاً: - يوم موت مسز سيمنجتون، من الساعة الثالثة والربع، وهى ساعة عودة أجنس المحتملة على أثر شجارها مع صديقها. حتى الساعة الرابعة، وهى الساعة التى يحتمل أن يكون موزع البريد قد مر فيها، وسأناقش هذه النقطة معه. ثم لدينا أمس من الساعة الثالثة إلا عشر دقائق، وهى الساعة التى خرجت فيها مس ميجان، حتى الثالثة والربع، لأن أجنس لم تكن قد وجدت ما يكفى من الوقت لكى تستبدل ثيابها.

- ألديك فكرة عما يمكن أن يكون قد وقع أمس؟

كشر ناش وقال:

- أظن أن سيدة جاءت وطرقت الباب بكل هدوء، كأية امرأة تأتى بقصد الزيارة. ومن الجائز أنها طلبت رؤية مس هولاند أو مس ميجان، أو أن تكون قد جاءت وفى يدها ربطة. وربما التفتت أجنس لكى تأخذ الصينية التى توضع عليها بطاقات الزيارة أو لكى تضع الربطة فضربتها السيدة عندئذ ضربة قوية على رأسها.

- بأى شىء؟

- إن الموضه الشائعة الآن هى الحقائب الكبيرة، ولا يمكن أن يدرى أحد ماذا يمكن أن يوجد بداخلها.

- ثم طعنتها بعد ذلك بالسيخ فى رأسها قبل أن تحشرها فى الدولاب؟... أتظن أن هناك امرأة تقدم على مثل هذا العمل؟

قال ناش:

- إن المرأة التى نبحث عنها ليست طبيعية. أنها مختلة العقل. والشخص المختل العقل يتمتع عادة بقوة خارقة. ثم أن أجنس كانت ضعيفة البنية.

وعاد يقول بعد لحظة صمت:

- ما الذى جعل مس ميجان هنتر تبحث فى ذلك الدولاب؟

- هى نفسها لا تدرى. لعله مجرد احساس... ولكن لم تخش تلك المرأة أن تعرفها أجنس أو أن تشك فى أمرها؟

- لم تكن أجنس تشك فى أحد بالذات. كان هناك شخص بدا لها غريب فحسب. كانت فتاة ضيقة الأفق كما سمعت عنها. وكانت تشك فى أن هناك شيئاً غير سليم فيما رأته، ولكنها لم تعرف ما هو. وعلى كل حال لم تكن تعرف أنها أمام امرأة جديرة بأن تقتلها.

- ألم تثر هذه الجريمة دهشتك؟

أجاب ناش:

- كان يجب أن أتوقعها، فإن انتحار مسز سيمنجتون أفزع كاتبة الخطابات وتملكها الخوف. وعندما يتدخل الخوف فيمكن أن نخشى كل شىء.

قلت:

- نعم. الخوف... كان يجب أن نفكر فيه... فإن الخوف عند شخص مختل العقل...

هز القوميسير رأسه وقال:

ـ هذه قضية عجيبة. أن الشخص الذى نبحث عنه مختل العقل يا مستر بورتون، ولكنه يتمتع فى نفس الوقت باحترام الجميع... أعنى أنه شخصية لها مكانتها واحترامها فى ليمستوك.

* * *

استجوب ناش روز للمرة الثانية، ولكنه لم يخرج منها بجديد. وبحث بعد ذلك عن مس هولاند فوجدها فى غرفة المذاكرة تستذكر للولدين دروسهما. وعندما رأتنا أعطتهما مسألة حسابية قالت أنه يجب أن يكونا قد فرغا من حلها عند عودتها، ثم انتقلت بنا إلى الغرفة المجاورة، وهى غرفة نومهما وقالت:

ـ يخيل لى أنه لا يجب أن نتكلم أمام الولدين.

أجاب ناش:

ـ إنك على حق يا مس هولاند. هل أستطيع أن أسألك مرة أخرى إذا كنت متأكدة تماماً أن أجنس لم تشر أمامك إلى ما كان يشغلها.

ـ إنها لم تقل أى شىء. إنها فتاة متحفظة وقليلة الكلام.

ـ هل لك أن تقولى لنا ما حدث بعد ظهر أمس... كل ما تتذكرين؟

ـ أننا تناولنا الغداء فى الساعة الواحدة كالعادة، ومضى مستر سيمنجتون إلى مكتبه ثم ساعدت أجنس فى إعداد المائدة للعشاء، ولعب الولدان فى الحديقة فى انتظار أن ألحق بهما.

ـ وأين ذهبتم؟

ـ إلى كومب آكر، عبر الطريق الذى يخترق الحقول. أراد الولدان أن يصطادا السمك، ولكنهما كانا قد نسيا الطعم، واضطررت أن أعود لكى آتيهما به.

ـ ومتى كان ذلك؟

ـ أننا خرجنا فى نحو الساعة الثالثة إلا الثلث، أو ربما بعد ذلك بقليل. وكانت ميجان تنوى المجيئ معنا ولكنها غيرت رأيها فى آخر لحظة وخرجت فى نزهة بدراجتها.

ـ إن ما أريد معرفته هو فى أية ساعة عدت للبحث عن الطعم... هل دخلت البيت؟

ـ كلا. فإن صندوق الطعم موجود فى الكشك خلف البيت، ولا أدرى كم كانت الساعة بالضبط. ولكن لا ريب أن ذلك كان حوالى الثالثة إلا عشر دقائق.

ـ هل رأيت مس ميجان أو أجنس؟

ـ كانت مس ميجان قد خرجت من غير شك ولم أر أجنس... لم أر أى أحد.

ـ ومتى عدتم؟

ـ فى الساعة الخامسة إلا عشر دقائق. وصعدت فوق مع الولدين وأعددت الشاى. وفى الساعة الخامسة عاد مستر سيمنجتون، وتناولنا الشاى جميعاً. ولم يخطر لى أن تلك الفتاة المسكينة كانت فى الدولاب أثناء ذلك.

- ألا تفتحون هذا الدولاب كثيراً؟

- كلا. لأننا نضع فيه الأشياء المستهلكة.

- ألم تلحظى شيئاً غريباً عند عودتكم؟

- كلا يا سيدى. كان كل شىء يجرى كالعادة، وهذا هو أفظع ما فى الأمر.

- والأسبوع الماضى.

- هل تعنى اليوم الذى ماتت فيه مسز سيمنجتون؟

- نعم.

- كان ذلك اليوم فظيعاً... مخيفاً.

- أعرف ذلك... هل كنت فى الخارج بعد ظهر ذلك اليوم أيضاً؟

- نعم. أننى أخرج أنا والولدان بعد ظهر اليوم. وأتذكر أننا ذهبنا فى ذلك اليوم إلى الحقول، وأننا ابتعدنا كثيراً لأننى تأخرت عن موعد الشاى. وقد ألتقينا بمستر سيمنجتون وهو عائد من مكتبه، وكانت الساعة الخامسة إلا عشر دقائق، وقد مضيت على الفور لاعداد الشاى.

- ألم تصعدى إلى غرفة مسز سيمنجتون؟

- كلا. أننى لا أصعد إليها أبداً لأنها تستجم دائماً بعد الغداء بسبب آلامها العصبية التى تواتيها دائماً عقب تناول الطعام. وكان الدكتور جريفيث قد وصف لها نوعاً من الأقراص لكى تساعدها على النوم.

سألها ناش فى غير اكتراث:

ـ أما كان أحد يصعد إليها بالبريد؟

ـ بريد بعد الظهر؟... كلا. كنت ألقى نظرة على الصندوق عند عودتى فإذا وجدت به خطابات وضعتها فوق الطاولة بالردهة. ولكن مسز سيمنجتون كانت تهبط هى بنفسها فى أكثر الأحيان وتأخذ ما يوجد من الرسائل. ولم تكن تنام طوال فترة بعد الظهر، وكانت تصحو فى الساعة الرابعة عادة.

ـ ألم تستغربى الأمر عندما لم تجديها صاحية عند عودتك فى ذلك اليوم؟... ألم يخطر لك أنه قد وقع شىء غير عادى؟

ـ وكيف كان يمكن أن يخطر لى شىء كهذا. لقد علق مستر سيمنجتون معطفه عنه وهو فى الردهة. وقلت له عندئذ أن الشاى لم يعد بعد فهز رأسه ونادى زوجته باسمها مرتين قائلاً «مونا» ولما لم ترد عليه صعد إلى غرفتها. ولا ريب أنه أصيب بتأثر شديد لأنه نادانى وطلب منى أن أبتعد بالولدين ثم تكلم فى التليفون مع الدكتور جريفيث... كانت لحظات فظيعة... امرأة رقيقة مثلها، كانت لاتزال حية ترزق ونحن نتناول الغداء.

ـ ما رأيك فى ذلك الخطاب الذى تلقته مسز سيمنجتون؟

أجابت فى صوت صادق.

ـ إنه فرية بشعة.

ـ هل تلقيت أحد هذه الخطابات المجهولة يا مس هولاند؟

- كلا.

- هل أنت واثقة؟.. لا تتسرعى بالاجابة... إن هذه الخطابات بغيضة بحيث لا يرضى أى أحد أن يعترف بأنه تلقى شيئاً منها. ولكننا نعرف مضمونها، وإذا كنت قد تلقيت بعضاً منها فيمكنك أن تقولى لنا ذلك دون أى انزعاج.

- ولكننى لم أتلق شيئاً منها أيها القوميسير... صدقنى.

وأوشكت أن تبكى وهى تقول ذلك، ولم يسع ناش إلا أن يصرفها. ثم مضى إلى النافذة وهو يقول:

- إنها تزعم أنها لم تتلق أى خطاب، ويبدو أنها صادقة.

- ليست وحدها فى ذلك... لا تنسى اميلى بارتون. ضحك ناش وقال:

- لا يجب أن تصدق كل ما يقال لك يا مستر بورتون... إن مس بارتون لم تتلق خطاباً واحداً فحسب، وإنما تلقت أكثر.

- وكيف عرفت ذلك؟

- من خادمتها.

- ولماذا زعمت مس اميلى أنها لم تتلق شيئاً من هذه الخطابات.

- رقة منها وخجلاً، فإن هذه الخطابات محشوة ببذاءات لم تعرفها فى حياتها، خصوصاً وأنها عاشت طوال حياتها تقريباً فى معزل عن الناس.

صحت:

ـ وهل ستظل تلك المرأة الخطرة بعيداً عن متناول العدالة؟

قال ناش فى هدوء:

ـ ثق أننا سنهتدى إليها، فإنها ستكتب خطاباً سيكون أكثر من اللازم وسيكون فيه هلاكها.

ـ أتظن أن الأمر لم ينته بعد؟

حدجنى بعينيه وأجابنى فى بطء:

ـ أننى مقتنع من هذا. لا يمكنها أن تتوقف. إنها مريضة والمرض أقوى. ستكون هناك خطابات أخرى، وثق من ذلك.



أشد الأمور غرابة

بحثت عن ميجان قبل أن أغادر البيت، ووجدتها فى الحديقة، وكان يبدو أنها استردت جأشها، وقد استقبلتنى مسرورة.

وعرضت عليها أن تعود للإقامة معنا بضعة أيام فترددت، ثم رفضت قائلة:

- هذه مكرمة منك، ولكننى أفضل البقاء هنا. ومهما يكن فإننى هنا فى بيتى، ثم أننى أستطيع تقديم المساعدة من أجل الصغيرين.

- كما تشائين يا ميجان.

- وإذا حدث ووقع شىء فإننى أستطيع أن أتصل بك على كل حال فتأتى... أليس كذلك؟

- بدون شك... ولكن ماذا تريدين أن يقع؟

- وما أدرانا؟... أن أشد الأمور غرابة تقع فى هذه الأيام.

وتركتها على مضض. ولكنها كانت فى بيتها كما قالت. ثم أننى كنت أرجو أن تكون السى هولاند قد أدركت الآن أن عليها أن تهتم بها هى

الأخرى.

ومضينا، أنا وناش، إلى ليتل فورز. وهناك استجوب القوميسير ماري، ولكنه لم يظفر منها هى الأخرى بجديد. وبعد أن انصرف أخذت أستعرض أنا وأختى شتى الاحتمالات عن كاتب الخطابات المجهولة، وهل هو رجل أم امرأة كما يعتقد المفتش جريفس. وتساءلت إذا لم تكن مارى هى التى كتبت تلك الخطابات، وإذا لم تكن أجنس قد رأتها فى ذلك اليوم وهى تلقى بالخطاب فى صندوق البريد ببيت سيمنجتون، ولكن جوانا سخفت رأيى هذا قائلة أنها لا يمكن أن تتصور أن مارى تكتب الخطابات المذكورة، وتحرص على إزالة بصماتها قبل أن ترسلها إلى أصحابها لأنها ليست ذكية إلى هذا الحد ثم إنها لم تخرج من البيت لحظة واحدة، لا فى اليوم الذى ماتت فيه مسز سيمنجتون ولا أمس، وهو اليوم الذى قتلت فيه أجنس. وانتهت فى حديثها إلى أن نصحتنى بأن أذهب إلى المدينة لكى أعرف ما يقال، وأردفت تقول:

ـ لا تنس أن الدكتور ماركوس كان نصحك بأن تهتم بالسياسة المحلية وبفضائح البلدة.

وكانت جوانا على حق فقد كان شارع هاى ستريت غاصا بالأهالى، وقد اجتمعوا فى جماعات متفرقة وراحوا يتناولون الآراء حول مقتل أجنس وادل المسكينة. ورأيت أننى سأخرج بحصيلة كبيرة.

وكان جريفيث أول من التقيت به، وكان يبدو شاحباً ومرهقاً بحيث أننى سألته عما به. وأجابنى يقول:

ـ أننى لقيت الكثير من المرضى فى الأيام الأخيرة.

ـ بما فى ذلك مجنوننا الذى يبعث فى البلدة فساداً دون أن يردعه رادع؟

ـ هو ما تقول.

ولاحظت أنه ينظر بعيداً، فى الناحية الأخرى من الشارع وقطب جبينه.

وسألته:

ـ ألا تشتبه فى أحد؟

ـ كلا لسوء الحظ.

وسألنى عن جوانا فجأة، وقال فى شىء من التردد أن معه صوراً يريد أن يريها إياها، فعرضت عليه أن أقوم عنه بهذه المهمة ولكنه أجابنى بأنه سيزور بعض المرضى بجوارنا بعد ظهر اليوم وأنه سينتهز هذه الفرصة ويعطيها لها.

وخشيت أن يكون قد وقع فى الفخ، ولعنت جوانا، فقد كان شاباً رقيقاً وما كان يجب أن تعبث به.

وغادرته عندئذ لأننى رأيت أخته عن بعد، ولأول مرة أحسست بحاجة إلى أن أتحدث إليها.

وبدأتنى ايميه بهذا السؤال:

ـ يبدو أنك كنت هناك مبكراً اليوم.

أجبت متجنباً الحديث عن مكالمة ميجان:

ـ هذا صحيح. كان يجب أن تأتى أجنس لزيارة مارى وتناول الشاى

معها ولكنها لم تأت. وشعرت بالقلق...

- وخشيت أسوأ الأمور؟.. أنك تتمتع بحاسة عجيبة... هذه أول جريمة قتل تقع فى ليمستوك. إن البلدة مقلوبة رأساً على عقب، وأرجو أن يتمكن البوليس من القبض على القاتل.

- لا تقلقى، فإنهم رجال قديرون حقاً.

- قال لى أوين أن القاتل ضربها على رأسها أولاً ثم طعنها بخنجر بعد ذلك. لا ريب أنها جريمة غرامية.

- أهذا رأيك؟

- بل هذه هى النظرية الوحيدة المعقولة. إن للرجال هنا طباعاً عنيفة جداً. يبدو أن ميجان هى التى عثرت على الجثة. لا ريب أنها أصيبت بذعر شديد، وهذا من سوء حظها حقاً، فإنها لا تتمتع بكامل قواها العقلية، ومثل هذه الجريمة كان يمكن أن تفقدها العقل تماماً.

وأردت أن أقطع الشك باليقين فسألتها فجأة:

- مس جريفيث... هل أنت التى نصحت ميجان بأن تعود إلى البيت؟

- لا أستطيع القول بأننى نصحتها...

- ولكنك قلت لها شيئاً...

اعتدلت فى وقفتها، ونظرت إلى صراحة وقالت فى هدوء:

- لا يجب على الفتاة أن تهرب من مسئولياتها، ومن ناحية أخرى فإن الناس لا يسكتون، وقد ظننت أن من واجبى أن أجعلها تفهم.

ـ الناس؟

وكان غضبى من الشدة والحدة بحيث لم أستطع أن أقول المزيد.

وأستطردت ايميه بتلك الثقة الغريبة التى تتسم بها شخصيتها:

ـ إنك لست على علم طبعاً بما يقال. ولكننى أعرف ذلك، وأننى واثقة تماماً أن ما يقولون لا يستند على أساس، ولكنك لا تعرف الناس، فإنهم إذا استطاعوا أن يذكروا أحداً بسوء فإنهم لا يدعون الفرصة تفلت منهم. ومثل هذه الشائعات تضر كثيراً بفتاة يجب أن تكسب قوت يومها.

ـ من التى يجب أن تكسب قوت يومها؟

ونظرت إليها وأنا لا أفهم شيئاً فاستطردت تقول:

ـ إنها فى موقف شديد الحرج والدقة، وأظن أنها فعلت ما كان يجب أن تفعل، فلم يكن فى استطاعتها أن تتركه ما بين يوم وليلة، وأن تتخلى عن الولدين. أنها كانت رائعة... رائعة جداً. وهذا ما أقول للجميع. ولكن الموقف بغيض مع ذلك، ولن تسكت ألسنة السوء.

سألتها:

ـ ولكن عمن تتحدثين؟

أجابت فى شىء من القلق:

ـ عن السى هولاند طبعاً. إنها فتاة ممتازة ورزينة، ومن رأيى أنها لم تقم إلا بواجبها.

ـ وماذا يقولون عنها؟

أطلقت ايميه جريفيث ضحكة لم ترق لى أبداً وقالت:

ـ يقولون أنها تواجه احتمال أن تغدو الزوجة الثانية لمستر سيمنجتون، وأنها على استعداد تام لمواساة الأرمل المسكين الذى يرى منذ الآن أنه لا غنى له عنها.

صحت:

ـ رحماك يا الهى!... ولم يمض على موت مسز سيمنجتون غير ثمانية أيام.

هزت مس جريفيث كتفيها وقالت:

ـ هذا غير معقول، ولكنك لا تستطيع تغيير طباع الناس. أن السى هولاند شابة وجميلة، ولها العذر إذا هى حاولت أن تظفر بزوج وبيت. وسيمنجتون المسكين لا يشك فى شىء طبعاً... أنه لم ينس بعد زوجته العزيزة «مونا»، ولكن الرجال رجال، وإذا بقيت هذه الفتاة بالبيت واهتمت به وأحبت الولدين، أو تظاهرت بذلك فسوف يصبح عبداً لها.

قلت فى هدوء:

ـ معنى هذا أنك تعتبرين السى هولاند دساسة؟

أحمر وجهها وقالت:

ـ لم أقل هذا أبداً. أننى حزينة من أجلها بسبب ما يقال عنها، وهذا هو السبب تقريباً فى أننى أوعزت إلى ميجان بأنها تحسن صنعاً بأن تعود إلى البيت، فهذا لا يبقى ديك سيمنجتون والسى هولاند فى البيت وحدهما... أن هذا أفضل بكثير.

وضحكت ايميه جريفيث، وحيتنى بإيماءة صغيرة من رأسها ثم ابتعدت.

* * *

والتقيت بمستر باى بجوار الكنيسة، وكان يتحدث مع اميلى بارتون.

ورحب بى قائلاً:

- صباح الخير يا بورتون... كيف حال أختك الظريفة؟

- على أحسن ما يرام. شكراً.

- ولكنها لم تأت لكى تشترك معنا فى برلمان البلدة الصغير... ولا ريب أنها ترى أن هذه الجريمة لا تستحق الاهتمام وأنها جريمة عادية... ولكنها جريمة بغيضة... القتيل فيها ليست أكثر من خادمة صغيرة غبية... أنها جريمة وحشية.

وقالت مس بارتون فى انفعال:

- أنها جريمة فظيعة.. بشعة!

قلت فجأة:

- كان يجب أن تأتى لكى تتناول الشاى مع مارى بعد ظهر أمس.

ثم تحولت إلى مستر باى وأردفت فى صوت هادئ:

- لا ريب أن مس جريفيث قالت لك ذلك.

أجاب دون أى ارتياب:

- نعم. وزادت فقالت أن المودة الجديدة الآن هى أن نرى الخدم

يستخدمون التليفون ببساطة ودون أى حرج.

- لم تكن مارى تفعل شيئاً كهذا أبداً، ويدهشنى منها ذلك.

قال مستر باى:

- إنك متأخرة يا عزيزتى. أن الخادمين اللذين يقومان بالخدمة عندى يستخدمان التليفون طوال النهار. وكان لابد لى من أن أغضب لكى يمتنعا عن التدخين فى كل الغرف، وقد رضيت بالأمر الواقع فإن برسكوت طاه ممتاز وزوجته لا مثيل لها فى أعمال البيت.

- نعم. إنك محظوظ حقاً معهما.

وقلت أعيد مجرى الحديث إلى الموضوع الذى يهمنى:

- إن نبأ الجريمة انتشر سريعاً.

قال مستر باى:

- هذا أمر طبيعى. فالناس يثرثرون عند الخباز والجزار والبدال، والأنباء تنتشر بسرعة فى ليمستوك... خطابات مجهولة... وجريمة قتل.

قالت اميلى بارتون:

- لا أخالك تظن أن هناك علاقة بين تلك الخطابات البغيضة ومقتل هذه الفتاة المسكينة؟

- هذه نظرية لها قيمتها. أن الفتاة المسكينة كانت تعرف شيئاً، وقد قتلت لهذا السبب. إنك أبديت فكرة غنية حقاً.

- أننى أرتعد لمجرد التفكير فيها.

وإذ نطقت مس بارتون بهذه العبارة استأذنت فى الانصراف، وابتعدت وهى تمشى فى خطوات صغيرة سريعة. وتابعها مستر باى بنظره ثم تحول إلى وقال:

ـ إنها امرأة شديدة الحساسية... وظريفة جداً... أثر من آثار الماضى. والحق إنها لا تمت إلى جيلها وإنما إلى الجيل الذى سبقها. إن أمها كانت قوية وقد عرفت كيف تسوس بناتها وتبقيهن فى العصر الذى عاشت فيه.

ـ ولكن ما رأيك فى الجريمة، وفى الخطابات؟

ابتسم مستر باى فى رفق وقال:

ـ إن الشواذ يثيرون اهتمامى، وقد درستهم كثيراً، ويحدث أحياناً أن يقدم الناس على أعمال غاية فى الغرابة. ومن رأيى أن البوليس يجب أن يقوم بدراسة نفسية فى هذه القضية. وأن لا يضيع وقته فى البحث عن بصمات وما أشبه. وأن يحاول بدلاً من ذلك، دراسة طبائع الناس... ماذا يفعلون بأيديهم، وأن يعرف عاداتهم وميولهم، وأن يرى إذا كان هناك من يضحك بلا سبب...

ـ إذن فأنت تظن أننا إزاء مجنون.

ـ هو مجنون بدون شك، ولكن ليس هناك من يشتبه فى أمره.

ـ ومن هو؟

وتلاقت نظراتنا، وقال وهو يبتسم:

ـ كلا يا بورتون. سيكون هذا اغتيابا، ولا أريد أن أزيد الاغتياب

إلى الشائعات التى تدور.

* * *

عدت إلى البيت قبل موعد الغداء بدقائق. وكانت جوانا جالسة فى الصالون الصغير لا تفعل شيئاً، وتبدو مستغرقة فى أفكارها. وقلت أسألها:

- حسناً. ماذا فعلت صباح اليوم.

- لا شىء بالذات.

ورأيت فى الشرفة مقعدين بجوار المنضدة الحديدية، وفوق المنضدة كأسين فارغين، وعلى مقعد ثالث شيئاً تأملته فى دهشة حقيقية وأنا أقول:

- ما هذا؟

قالت جوانا:

- هذه صورة فأرة مريضة، حسب الدكتور جريفيث أنها قد تثير اهتمامى.

فحصت الصورة فى فضول. ولكل رجل طريقته الخاصة فى مغازلة السيدات، ولكن ما كان ليخطر ببالى أبداً أن أغازل امرأة بأن أريها صورة من هذا النوع. ولكن لا ريب أن جوانا هى التى أرادت أن ترى تلك الصورة بالذات. وقلت:

- هذه الصورة ليست جميلة أبداً.

وافقتنى أختى على ذلك. وعندما سألتها عن أنباء جريفيث قالت

لى أنه بدا لها مرهقاً، وأردفت تقول:

ـ أظن أن هناك شيئاً يزعجه.

ـ لا ريب أنها فأرة لا تستجيب للعلاج.

ـ لا تكن غبياً. أننى لا امزح.

ـ حسناً. أنت التى تزعجيته إذن، إذا أردت رأيى. يجب أن تتركيه وشأنه.

ـ ولكننى لم أفعل به شيئاً.

ـ إن النساء لا يعترفن بأخطائهن أبداً.

أولتنى ظهرها وابتعدت غاضبة.

وبدت صورة الفأرة تلتف حول نفسها تحت أشعة الشمس، فأمسكتها فى رفق من أحد أطرافها ومضيت بها إلى الصالون. لم تكن الصورة عزيزة على، ولكننى كنت أعلم أن جريفيث يعتبرها كنزا، وتناولت من أول رف فى المكتبة كتاباً لكى أضع الصورة بين صفحاته حتى لا تلتف حول نفسها. وكان كتاباً ضخماً، يضم مجموعة من المواعظ، وانفتح تلقائياً بين يدى.

وأدركت السبب على الفور... ذلك أن عدداً كبيراً من صفحاته قد انتزع منه.

* * *

فحصت الكتاب وأنا مشدوها، ونظرت إلى عنوانه. كان مطبوعاً فى سنة ١٨٤٠، ولم يكن هناك أى شك فى أنه هو الكتاب الذى

استخدم فى «تركيب» الخطابات المجهولة.

فمن الذى انتزع هذه الصفحات؟

فكرت فى بادئ الأمــر فى امــيلى بارتون ومــارى، فـقــد كــان من الطبـيعى أن يتجـه فكرى إليهمـا فى المجـال الأول. ولكننى لم ألبث أن واجهت احتمـالات أخرى. فمن الجـائز أن تكون مس بارتون قد تركت زائراً فى الغرفة ووجد من الوقت ما يكفيه لانتزاع الأوراق الناقصة.

فمن يكون ذلك الزائر؟.. مستـر باى أو ايميه جـريفيث أو مسـز دين كالثروب؟

* * *

وأطلعت جوانا بعـد العشاء على اكتشافى، وتشاورنا طويلاً فى هذا الموضـوع، ثم مـضـيت بالكتـاب إلى قـسم البـوليس. ولم يكن جـريفس موجودًا فاستدعاه القوميسير ناش، وتم الاتفـاق على رفع ما قد يكون على الكتاب من بصمات، وهى عملية لم يتوقع القوميسير أن تسفر عن شىء، وكان على حق فلم يجدوا على الكتاب إلا بصـماتى أنا وبصـمات مارى مما يدل على أنها كانت تقوم بعملها خير قيام.

وسألت ناش عن سير التحقيق فقال:

- إن الحلقة تضيق، وقد استبعدنا كل الأشـخاص الذين لا يمكن أن ترقى إليهم الشبهات.

- ومن الذى يبقى؟

- مس جينش أول كل شيء. مضت بعـد ظهـر أمس إلى عمـيل يقع

بيته بعد بيت مستر سيمنجتون بقليل. وفى الأسبوع الماضى كان اليوم الذى ماتت فيه مسز سيمنجتون هو آخر يوم لها فى مكتب المحامى. وقد اعتقد مستر سيمنجتون أنها لم تغادر المكتب طوال فترة بعد الظهر. كان مجتمعاً بسير هنرى لاشنجتون وجاءته مس جينش ببعض المستندات أكثر من مرة. ولكننى تحققت أنها خرجت فى الواقع فيما بين الساعة الثالثة والرابعة لكى تشترى طوابع بريدية من مكتب البريد. وهذا عمل كان يمكن للساعى أن يقوم به، ولكن مس جينش أصرت على أن تذهب هى بنفسها لشراء الطوابع محتجة بأنها تشكو من صداع وأن الهواء النقى سيصيبها بخير كبير. بيد أنها لم تغب طويلاً على كل حال...

ـ ولكنها غابت بما يكفى لكى...

ـ لكى تعدو إلى آخر البلدة وتلقى بالخطاب فى الصندوق ثم تعود مسرعة. ومهما يكن فيجب أن أقول أن لا من أحد رآها بجوار بيت سيمنجتون.

ـ ومن غيرها؟

نظر ناش أمامه وقال:

ـ يجب أن تفهم أننا لا نستطيع أن نستبعد أحداً... لا نستطيع استبعاد أى أحد... وقد مضت ايميه جريفيث أمس إلى لقاء للمرشدات فى برنتون، وعادت متأخرة.

ـ لا أخالك تظن...

ـ كلا طبعاً. ولكننى لا أدرى...

ـ وهل كـان فى مـقـدورها أن تلقى بالخطاب فى الصندوق فى الأسبوع الماضى؟

ـ نعم، لأنها تنقلت بين متاجر البلدة طوال فترة بعد الظهر، وفعلت مس بارتون نفس الشىء وتنقلت هى الأخرى بين المحلات أمس. وفى يوم الأربعاء الماضى مضت لزيارة بعض أصدقائها الذين يقيمون على مقربة من بيت سيمنجتون.

وصمت لحظة ثم عاد يقول:

ـ ثم هناك مستر باى.

ـ هل فكرت فيه هو الآخر؟

أجاب وعلى شفتيه ابتسامة:

ـ طبعاً. أنه رجل غريب الأطوار، ويجب أن أقول أنه لا يتمتع بحب الأهالى. ولا يستطيع أن ينفى عن نفسه الاتهام، فقد كان أمس فى حديقة وحده... ويوم الأربعاء الماضى كذلك.

ـ إذن فأنت لا تقتصر فى شبهتك على النساء فقط؟

ـ أنا لا أعتقد إن كاتب الخطابات رجل، والمفتش جريفس مثلى، ولكن مع استثناء واحد وهو أن مستر باى له طبع أنثوى، ولكن هذا الاعتقاد لم يمنعنا من التحقيق من انتفاء الشبهة عن الجميع، سواء كانوا رجالاً أو نساء. وأنا متأكد من ناحيتك، ومن ناحية أختك أيضاً. أما مسترسيمنجتون فلم يتحرك من مكتبه. وكان جريفيث يعود مرضاه. وقد تحققت من كل ذلك.

ودخل أوين جريفيث المكتب فى هذه اللحظة وقال:

ـ صباح الخير يا ناش. قيل لى أنك بحثت عنى صباح اليوم، فهل الأمر خطير؟

ـ كلا. وإنما ستعقد جلسة التحقيق يوم الجمعة، فهل يوافقك هذا؟

ـ حسناً. سأقوم أنا ومورسيى بالتشريح الليلة إذن.

ـ وثمة شيء آخر... هل كانت مسز سيمنجتون تتناول أقراصاً... تحتوى على مسحوق وصفته أنت لها؟

ـ نعم.

ـ وهل يتسبب فى موت أحد إذا تناوله بكمية كبيرة؟ أجاب جريفيث.

ـ كلا طبعاً، إلا إذا أخذ خمسة وعشرين قرصاً على الأقل.

ـ ولكن ألم تكن مسز جريفيث تفرط فى تناول هذا الدواء؟... لقد قالت لى مس هولاند أنك لفت نظرها إلى ذلك مرة.

ـ هذا صحيح. فقد خطر لمسز سيمنجتون أنها ستشفى سريعاً إذا هى تناولته بكمية أكثر. وقد حذرتها من ذلك. أما عن سبب الموت فإنها ماتت أثر تناولها كمية من السيانور.

ـ أعرف ذلك. شكراً لك.

واستأذنت فى الانصراف بعد أن غادر جريفيث المكتب بقليل، وعدت إلى البيت على مهل. وكانت جوانا قد خرجت، ووجدت بجوار التليفون ورقة كتبت عليها هذه الكلمات: «إذا تكلم الدكتور جريفيث فى

التليفون فقل له أننى لا أستطيع يوم الثلاثاء. ولكن يمكننى أن أدبر الأمر يوم الأربعاء أو الخميس».

ورفعت عينى إلى السماء ومضيت إلى الصالون حيث جلست فى مقعد وثير ورحت أفكر.

أن القوميسير ناش يشتبه فى أشخاص عديدين ولا يستطيع أن يحصر شبهته فى شخص معين. ولكن من عساه يكون كاتب الخطابات المجهولة.

أهى مارى أم مسز كليت؟... ألا يمكن أن تكون اميلى بارتون، تلك المرأة الرقيقة هى التى تكتبها وتحشوها بتلك القذارات وتنفس بذلك عما يجيش فى صدرها منذ وقت طويل؟

أيمكن أن تكون هى ايميه جريفيث، تلك المرأة التى تتدفق حياة وتتوقد ذكاء التى تكلمت عنها مسز دين كالتروب فنعتتها بالفتاة المسكينة؟

ثم هناك مستر باى، وهو رجل ضئيل، ومن العسير أن يثق به الانسان... وتصورته يكتب هذه الخطابات ويدبر كل شىء... لا ريب أن الأمر كان يروق له جداً.

وفكرت من جديد فى تلك الرسالة التى تركتها جوانا بجوار التليفون، ولا أدرى لماذا شعرت بالضيق. هل كان ذلك لأنه كان من الواضح أن جريفيث وقع فى حب جوانا؟... كلا... لماذا إذن؟

ولم أعد أدرى بما يدور حولى تماماً، وغلبنى النعاس، ورحت أردد فى غباء «ليس هناك دخان من غير نار... ليس هناك دخان من غير

نار».

وبعد ذلك رأيت نفسى فى الشارع مع ميجان. ومرت السى هوارد بنا، وكانت ترتدى ثياب الزفاف، وراح الناس يتهامسون من حولها ويقولون «إنها ستتزوج حبيبها جريفيث رغم كل شىء... فقد خطبها سراً منذ سنوات».

ودخلنا الكنيسة. وكان دين كالثروب يقوم بطقوس الزواج. وفى منتصف الحفل وقفت مسز دين كالثروب فوق مقعدها وصاحت تقول:

- يجب أن يتوقف هذا... أقول لكم أنه يجب أن يتوقف.

ومرت بى دقيقة وأنا أتساءل هل أنا فى منام أو فى يقظة. ثم لم ألبث أن أدركت أننى جالس فى بيتى، وإن مسز دين كالثروب واقفة أمامى. وكانت قد دخلت من النافذة الكبيرة، وكانت تقول فى حدة:

- يجب أن يتوقف هذا.

أجفلت وقلت:

- معذرة... أظن أننى غفوت... ماذا تقولين؟ ضربت راحتها اليسرى بيدها اليمنى وقالت:

- يجب أن يتوقف هذا... أعنى الخطابات والجرائم والباقى...

- إنك على حق فى هذا، ولكن كيف نفعل؟

- يجب أن ننظف البلد. قلت لك أن الأهالى هنا ليسوا أشراراً، ولكننى كنت مخطئة. أنهم لا يساوون أكثر من غيرهم.

بدأت أشعر بالضجر، ولكننى قلت فى لهجة مهذبة:

ـ نعم يا سيدتى الهمامة. ولكن ماذا تريدين أن تفعلى؟... أتحسبين نفسك أقدر من رجال البوليس؟

ـ كلا. لهذا السبب سألجأ إلى شخص خبير فى مثل هذه الأمور.

هززت رأسى وقلت:

ـ إنك تضيعين وقتك. أن اسكوتلانديارد لن تتولى الأمر إلا إذا طلب منها مدير بوليس المقاطعة ذلك رسمياً. ومهما يكن فقد أرسلت إلينا المفتش جريفس.

أجابت مسز دين كالثروب:

ـ أننى لا أفكر فى أحد رجال البوليس. أننا لسنا بحاجة إلى شخص يقوم بالتحرى والتحقيق، وإنما إلى شخص يعرف دخائل النفس البشرية، ويكشف كوامن الشر فيها.

كانت هذه نظرية لم تترك لى مسز دين كالثروب الوقت الكافى لاستيعابها، فقد انحنت فوقى وقالت كما لو كانت تسر إلى بسر لا تريد أن يعرفه أحد:

ـ وهذا ما سأهتم به الآن.

ودون أن تنتظر منى جوابا خرجت من النافذة التى جاءت منها.



جلسة التحقيق

كان الأسبوع الذى تلا ذلك أغرب فترة فى حياتى، فقد خيل لى أننى أعيش حلماً عجيباً، وبدت لى كل الأمور بعيدة عن الواقع.

فقد حضر أهالى ليمستوك جلسة التحقيق التى دارت حول مقتل أجنس وادل، وصدر الحكم كما توقعناه تماماً، وهو أن الجريمة ارتكبها مجهول أو مجهولون، وساد الفزع فى البلدة، راح الجميع يتبادلون النظر فى شك وارتياب إذ أسفر التحقيق عن أن القاتل ليس غريباً وأنه لابد واحد منهم.

ومرت الأيام دون أن يجد جديد، ولم تظهر خطابات أخرى، وأخذ ناش يتنقل فى المدينة من وقت لآخر، ولكن لم تكن لدى أية فكرة عن سير التحقيق، ولا عن الفخاخ التى ينصبها رجال البوليس، وغادر جريفس البلدة.

وجاءت أميلى بارتون وتناولت الشاى معنا، كما جاءت ميجان وتناولت الغداء. وجعل أوين جريفيث يعود مرضاه، واستضافنا مستر باى فى بيته مرة أخرى ثم مضينا أخيراً لتناول الشاى فى بيت مسز

دين كالثروب.

وقضينا فى بيتها أصيل يوم جميل، وقدمت إلينا صديقة لها جاءت للاقامة معها بعض الوقت، وهى عانس مسنة ظريفة تقضى وقتها فى شغل الإبرة، وتدعى مس ماربل. وقد أبدت اهتماماً كبيراً بالقضية قائلة:

- لا شىء يقع فى الريف تقريباً.

وقالت تسأل بعد بضع لحظات: ومن الذى يبعث بهذه الخطابات؟

أجابت جوانا: المعتقد أنها مسز كليت.

تدخلت مسز دين كالثروب فقالت: لم يعد هذا الاعتقاد سائداً الآن.

وسألت مس ماربل من تكون مسز كليت هذه فتطوعت جوانا قائلة:

- أنها ساحرة القرية.

قالت مس ماربل: لا يمكن أن تكون هى إذن، لأن تلك الفتاة المسكينة قتلت بسيخ، ولو أن مسز كليت أرادت أن تضرها لألقت عليها سحراً فتموت ميتة عادية.

والتفتت إلى وقالت: أنت رجل غريب عن هذه المنطقة يا مستر بورثون، وتعرف الدنيا كما تعرف الحياة، ويبدو لى أنه كان فى مقدورك أن تهتدى إلى مفتاح هذه القضية البشعة.

أجبت وأنا أبتسم: أننى اهتديت إليه، ولكن كان ذلك فى المنام.. زال الغموض عن كل شىء، ولكن ما أن صحوت حتى رأيت لسوء الحظ أن الأمر غير ذلك.

ـ هذا عجيب.. قل لى ماذا رأيت؟

ـ أظن أن حلمى بدأ بعبارة يرددها الجميع فى البلدة وهى «ليس هناك دخان من غير نار» ثم ربطت بين هذه العبارة وبين بعض الاصطلاحات الحربية وستار من الدخان ورسالة تليفونية... آه، كلا. أننى أخلط بين هذا الحلم وحلم آخر.

ـ وما هو هذا الحلم الآخر؟.

ـ أوه.. أنه كان حلماً سخيفاً. رأيت فيه السى هولاند، مربية الأولاد ببيت سيمنجتون، بملابس العرس، تتزوج الدكتور جريفيث. والأب دين كالثروب يقوم بطقوس القداس، ومسز دين كالثروب تصيح قائلة: «يجب أن يتوقف كل هذا».

وتحولت إلى مسز كالثروب وأردفت أقول مبتسماً: ولكننى فى تلك اللحظة بالذات لم أكن أحلم، فقد كنت أنت واقفة أمامى، وسمعتك تقولين ذلك.

قالت مسز كالثروب فى هدوء: كان لدى من الأسباب ما يحملنى على ذلك.

وقالت مس ماربل: ولكننى لا أرى فى هذا الحلم أية رسالة تليفونية.

ـ الواقع أنها لم تكن فيه، وإنما وجدتها قبل أن أغفو. كانت عبارة عن كلمة لى من أختى لكى أنقلها إذا تكلم أحد فى التليفون.

انحنت مس ماربل نحوى وقالت: هل تنعتنى بالفضول إذا أنا سألتك عن مضمون هذه الرسالة؟

ثم تحولت إلى أختى وقالت: وأرجوك المعذرة يا صديقتى العزيزة.

ابتسمت جوانا تطمئنها فى حين أعدت أنا على سمع مس ماربل

الكلمة التى تركتها لى أختى بالتقريب وأنا أخشى أن أخيب ظنها، ولكن ما كانت أشد دهشتى حين بدا عليها الارتياح التام وقالت:

- كنت أشك فى شىء من هذا القبيل. أنك تتمتع بذكاء كبير يا مستر بورتون، ولكن ينقصك الثقة فى النفس، وأنت مخطئ فى هذا.

احتجت جوانا ساخطة: لا تقولى له مثل هذا القول بحق الله فكفاه غرورا بنفسه.

وعادت مس ماربل إلى شغل الإبرة وهى تقول:

- لكى يرتكب المرء جريمة ناجحة يجب أن يكون كالحاوى تقريباً. فلا يكفيه التحرك بسرعة، وإنما يجب على الخصوص أن لا ينظر الناس إلى حيث ينبغى النظر.

قلت: يخيل لى أننا بحثنا عن هذا المجنون الطليق فى غير المكان الذى يجب أن نبحث فيه.

قالت مس ماربل: عنى أنا فلن أبحث عن مجنون، وإنما عن شخص عاقل يتمتع بكل قواه العقلية.

قلت: هذا رأى ناسن. ومن رأيه أيضاً أنه يتمتع باحترام الناس وتقديرهم.. وأنه ستكون هناك خطابات أخرى.

قالت: إذا كان هذا هو اعتقاد البوليس فسوف تكون هناك خطابات أخرى بدون شك، ولا يدهشنى أنه أبدى اهتماماً خاصاً بالفتيات الجميلات.

- وهذا هو سبب دهشتى فى أنه لم يبعث بأى خطاب لمس هولاند..

- مس هولاند..؟ أهى مربية ابنى سيمنجتون؟ تلك التى رأيتها فى الحلم..؟

- نعم.

ـ من الجائز أنها تلقت خطاباً ولم تشأ الاعتراف بذلك.

ـ كلا.. أنها أكدت العكس، وقد صدقها ناش.

قالت مس ماربل فى تفكير: هذا أمر هام جداً.. بل أنه أهم شىء سمعته حتى الآن.

* * *

عاتبتنى جوانا، ونحن فى طريق العودة إلى «ليتل فورز» لأننى كررت ما ذكره لى ناش عن احتمال إرسال خطابات أخرى، فقلت:

ـ ليس لهذا أية أهمية.

ـ هذا خطأ، فلعل مسز دين كالثروب هى التى تحررها.

ـ إنك تقولين ذلك، ولكنك لا تؤمنين به.

ـ الحق أنى أصبحت لا أدرى.. أنها امرأة غريبة الأطوار.

وفى غداة اليوم التالى، كنت عائداً بالسيارة من اكسهامبتون، حيث تناولت العشاء، وكان الليل قد هبط، وواجهت مشكلة مع مصباحى السيارة الأماميين، وقمت بمحاولات عدة لاضاءتهما واطفائهما، ولم أجد أخيراً بداً من الوقوف بالعربة لفحصهما. وأفلحت فى اصلاحهما ثم استأنفت سيرى.

وكان الطريق مقفراً، وبلغت مشارف ليمستوك دون أن ألتقى بأحد. ورأيت أول بيوت البلدة، ومن بينها مبنى المعهد النسائى، بأبراجه السوداء التى ترتفع فى السماء. وأبطأت السير ثم توقفت. ولا أدرى لماذا؟ ربما لأننى رأيت شبحاً يتسلل من الباب الحديدى خلسة.. مهما يكون فقد دفعنى الفضول إلى مغادرة مكانى. ورأيت الباب الحديدى

مواربا، فدخلت، وتقدمت فى الطرقة التى تؤدى إلى الباب العمومى.

ووقفت هناك حائراً لا أدرى ما الذى جاء بى. وكنت لاأزال فى حيرتى عندما خيل لى أننى أسمع حفيف ثوب، فأسرعت على الفور إلى الناحية التى بدا لى أن الصوت صدر منها، وإذ لم أر أحداً تقدمت بضع خطوات ولم البث أن وجدت نفسى أمام نافذة.

وألقيت نظرة إلى الداخل وأرهفت السمع. كان الصمت مخيماً، ومع ذلك فقد كنت شبه واثق بأن هناك شخصاً ما.

وكنت لا أزال ضعيفاً، ولا أحسن القفز والوثب، ولكننى تمكنت مع ذلك، وبشىء من الجهد من تسلق النافذة. وهبطت إلى الأرض محدثاً صوتاً لم أكن أريد أن يصدر منى. وبقيت لحظة لا أتحرك. وإذ خيل لى أن أحداً لم يسمعنى، تقدمت فى الظلام، فى حذر. وسمعت حركة خفيفة على يمينى، فأخرجت مصباحى الكهربى من جيبى وأضأته.

وسمعت عندئذ صوتاً خافتاً جداً يقول: أطفئ هذا.

وكان صوت القوميسير ناسن.

وأخذنى من ذراعى، ومضى بى إلى طرقة ليس بها نوافذ، وهناك أضاء مصباحه وسلط ضوءه على وجهى وهو يقول فى حزن أقرب منه إلى الغضب:

ـ إنه القدر..! أكان لابد أن تختار هذه اللحظة بالذات لكى تأتى؟

اعتذرت قائلاً: أننى آسف. ولكن خطر لى فجأة إن شيئاً غير عادى يحدث هنا.

ـ هل رأيت أحداً؟

ـ لست واثقـاً. خـيل لى أننى رأيت شـخـصـاً يتـسلل من البـاب الحـديدى ولكننى لا أسـتطيع أن أجـزم أننى رأيت أحـداً. ثم سـمـعت بجوار الباب بعد ذلك حفيف ثوب.

قال ناش: لم يخـدعك احساسك، فقـد تسكع شـخص حول البيت قبل أن تحضـر أنت بقليل، وتردد أمـام النافـذة ثم أسـرع بالابتعـاد، ولا ريب أنه سمعك.

اعتذرت للمرة الثانية ثم سألته: هل أستطيع أن أعرف ماذا تتوقع؟

أجـاب: أن الأمـر بسـيط. أننى أعـتـمـد على أن كـاتب الخطابات المجـهـولة لا يمكن أن يكف عن كـتابتـهـا، على الرغم مما فى ذلك من خطر عليه. إن كتابة الخطابات عنده حاجة ملحة، تماماً كحاجة المدمن إلى المخدر الذى لا يمكن الاستغناء عنه.

وأمسك لحظة ثم استطرد يقـول: أعتقـد أن المرأة التى تكتب هذه الخطابات، أيا كانت شخصيتها، تحرص على أن تشبه خطاباتها المقبلة تلك التى سبق أن أرسلتها ليست هناك أية صعوبة فى الرسائل نفسها، فـمـا عليـهـا إلا أن تقـتطع الحـروف والكلمـات من الصـفـحـات التى انتـزعـتـهـا من الكتـاب. ولكن لعلهـا تعـانى بعض المتاعب فيـمـا يتـعلق بالظروف، فـلابـد لهـا من أن تكتبـهـا على نفس الآلة الكاتبـة التى سـبق لهـا أن استـخدمـتـهـا، فإن من التهور أن تستـخدم آلة أخـرى أو أن تكتب العناوين بخط يدها.

قلت متشككاً: أراك مقتنعاً تماماً أنه ستكون هناك خطابات أخرى.

ـ هو ذلك. وأراهنك بما تريد على أن تلك المرأة تشعـر بالاطمـئنان والأمـان من أى وقت مضى، فـإن الذين على شـاكلتهـا يعتقدون دائمـاً أن

الآخرين أغبياء. صفوة القول أننى أتيت هنا لكى أنتظرها، مقتنعاً بأنها ستأتى من أجل الآلة الكاتبة.

- أهى مس جينسن التى كنت تتوقع أن تجدها؟

- ربما..

- أما زلت لا تعرف من هى؟

- لست متأكداً من أى شىء بعد.

- ولكنك تشتبه فى أمرها؟

- نعم. غير أن العدو ماكر يا مستر بورتون ويعرف كل الخدع.

وأدركت أن ناسن لا يضيع وقته وأنه سوف يهتدى إلى الجانى أن آجلاً وإن عاجلاً. واعتذرت إليه للمرة الثالثة ثم عدت إلى سيارتى.

وكان هناك شخص يقف بجوارها. ودهشت جداً عندما عرفت فيه ميجان. وصاحت تقول:

- كنت واثقة من أنها سيارتك. من أين تأتى؟

- وأنت..؟ ماذا تفعلين فى الخارج فى مثل هذا الوقت؟

- أننى أتنزه.. أننى أحب أن أمشى فى الريف، فليس هناك أحد لكى يعاكسك ويثقل عليك بحماقاته، ثم أنك تستطيع أن تستنشق الهواء النقى وروائح لا تفطن إليها أثناء النهار.

قلت: أننى معك فى كل هذا. ولكنى لا يمشى فى الليل غير القطط والساحرات. ولا ريب أن البيت كله مشغول عليك الآن.

- أتظن هذا..؟ ما من أحد يهتم أبداً بالمكان الذى أكون فيه، ولا بما

أفعل.

سألتها: وكيف الحال هناك؟

ـ لا بأس به.

ـ هل تعتنى مس هولاند بك الآن قليلاً؟

ـ إنها ظريفة جداً.. غبية بعض الشيء، ولكن هذا ليس ذنبها.

ـ جـمـيل منك هذا القـول، ولعلك على حق. ولكن، اصـعـدى. سأوصلك إلى البيت.

لم يكن حقاً ما قالت من أن أحداً لا يهتم بها، فقد كان سيمنجتون واقفاً أمام الباب عندما وصلنا. وعرف سيارتى، وصاح يقول: حتى قبل أن أوقفها:

ـ هل ميجان معك؟

ـ أننى أتيتك بها.

وقال حين هبطت من السيارة: لا يجب أن تخرجى هكذا دون أن تقولى لأحد يا ميجان. أن مس هولاند بحثت عنك فى كل مكان.

تمتمت ميجان ببضع كلمات غير مفهومة ثم مرت أمامه ودخلت البيت. وتنهد سيمنجتون وقال:

ـ إن الفتاة الكبيرة التى لا أم تعنى بها لمسئولية كبيرة.. ثم إنها كبرت على المدرسة الداخلية.

ونظر إلى فى ارتياب وقال: هل اصطحبتها فى نزهة؟

وآثرت أن أجعله يعتقد ذلك وأجبته بالإيجاب.

الجنــون

استولى على الجنون فى اليوم التالى.
وعندمـا أفكر فـيـمـا حـدث فى ذلك
اليوم، لا أجد تفسيراً آخر غير ذلك.

فقـد كنت أمضى إلى لندن مـرة كل شـهـر لكى يفـحـصنى الدكـتـور ماركوس. وكنت أستقل القطار. وقررت جوانا فجأة أن لا ترافقنى كما كانت تفعل كل مرة. وقد قلت لها أننا سنعود فى مساء اليوم نفسه، ولكنها أصرت على رأيها وقالت فى شىء من الغموض أن لديها ما يشغلها، وأن من الجنون أن تظل فى القطار وتعانى من الحر فى حين أن الطقس جميل فى الريف. واعترف أن هذا صحيح ولكن لم يكن هذا من شيمها أبداً.

وإذا أكدت لى أختى أنها ليست بحاجة إلى السيارة، فقد ذهبت بها إلى المحطة، وهى، لأسباب غامضة لا يعرفها إلا مدير الشركة، تقع على بعد كيلو متر من البلدة.

والتقيت فى منتصف الطريق بميجان، وكانت تتمشى فتوقفت بجوارها وخاطبتها قائلاً:

ـ صباح الخير يا ميجان. ماذا تفعلين.

ـ إننى أتنزه.

ـ ولكنك تمشين ببطء شديد كأنك سلحفاة.

ـ ذلك لأنه لا وجهة معلومة لى.

ـ إذا كان الأمر كذلك فاصعدى... سوف ترافقينى إلى المحطة.

وجلست بجوارى وسألتنى:

أين تذهب؟

ـ إلى لندن، لكى أرى طبيبى.

ـ إنك لست مريضاً، أليس كذلك؟

ـ كلا. بل أننى فى أتم صحة، وأرجو أن يكون ماركوس كنت مسروراً منى.

وفى المحطة تركت السيارة فى الموقف ثم ابتعت تذكرتى، ولم يكن على الرصيف غير أناس قلائل، لم أكن أعرف أحداً منهم.

واقترضت ميجان منى قطعة من النقود ومضت لكى تشترى قالباً من الشيكولاته. ونظرت إليها فى سخط متزايد، فقد كانت تلبس حذاء لم يعد له شكل، وجوارب خشنة غليظة، وجونلة وجاكيت غير متجانستين ورثتين. وما كان يجب أن اكترث لكل هذا، ولكننى شعرت بالضيق مع ذلك. وقلت لها فى غلظة، عندما عادت:

ـ ميجان.... لماذا ترتدين هذه الجوارب البشعة؟

نظرت إلى مشدوهة وقالت:

ـ إنها فظيعة... وهذه الجاكيت؟... أتعتقدين أنها جميلة؟

ـ لا بأس بها أبداً... فإننى ألبسها منذ سنوات.

ـ هذا ما كنت أشك فيه... ولماذا...

ودخل القطار المحطة فأمسكت عن موعظتى، وصعدت إلى مقصورة شاغرة، وجلست. وفتحت النافذة. وكانت ميجان واقفة على الرصيف وقد رفعت وجهها إلى. وسألتنى عن سبب ضيقى فقلت:

ـ إننى لست متضايقاً ولكننى أغلى من الغيظ... والغضب... بسبب ما أراه من اهمالك وعدم اهتمامك بنفسك.

أجابت: مهما يكن فلن أكون جميلة... فما الجدوى إذن...

ـ ألا تعرفين كيف تكونين إذا ما اهتممت بنفسك؟.. كم أود لو أن آخذك معى إلى لندن، وأن أجهزك من أخمص قدمك حتى أعلى رأسك.

وتحرك القطار. وكانت ميجان لاتزال واقفة، وقد رفعت وجهها الصغير نحوى فى تفكير.

وعندئذ استولى على الجنون كما سبق القول.

فقد فتحت الباب فجأة، وأمسكت ميجان من ذراعها ورفعتها إلى المقصورة، ووقعت على أرضية العربة فى شىء من الخشونة. وساعدتها على الوقوف.

وسألتنى وهى تنفض ركبتيها:

لماذا فعلت هذا؟

أجبتها: سوف تأتين معى إلى لندن. وعندما أفرغ من الاهتمام بك وتنظرين إلى المرآة، سترين كيف تبدين... أننى سئمت أن أراك هكذا.

وأقبل الكمسارى عندئذ فأعفاها عن الرد. ودفعت له ثمن تذكرة لها ذهاباً وإياباً فى حين جلست هى أمامى وراحت تنظر إلى فى خوف

واحترام. وقالت بعد أن انصرف الكمسارى:

ـ هل تأخذ قرارتك هكذا فجأة؟

ـ دائماً. إننا جميعاً هكذا فى العائلة.

وكيف كان فى مقدورى أن أفسر لها مشاعرى... بدت لى وهى واقفة على الرصيف كالكلب الضائع، ولكنها بدت لى الآن ككلب شهم لم يتأكد بعد أنهم يخرجون به للنزهة. وقلت:

ـ أظن أنك تعرفين لندن؟

ـ نعم. فقد ذهبت إليها مراراً، عندما كنت فى المدرسة. كما ذهبت اليها لمعالجة أسنانى.

ـ ولكنك سترين لندن أخرى هذه المرة.

وعندما بلغنا لندن كان لايزال على موعدى مع ماركوس كنت نصف ساعة، فركبنا سيارة أجرة، وذهبت بها إلى محل مارى جراى خياطة جوانا، وهى امرأة ظريفة فى الأربعين من عمرها. وقلت لميجان قبل أن ندخل المحل:

ـ أنت ابنة عمى.

ـ لماذا؟

ـ لا تناقشى.

وخاطبت مدام جراى قائلاً:

أننى أتيتك بابنة عمى. كانت جوانا تريد أن تأتى بنفسها ولكن منعها مانع، وهو تفوض إليك كل شىء يجب أن تكون هذه الفتاة كاملة الزينة عند انصرافها من هنا. ولك مطلق الحرية فى الجوارب والحذاء والملابس الداخلية وكل شىء. وأظن أن حلاق جوانا على مقربة.

ـ إنه على بعد خطوات. سألجأ إليه. اطمئن سوف اهتم بكل شيء، فإن هذه الصغيرة جميلة جداً.

قلت:

مرحى!... سآتى فى الساعة السادسة، وأرجو أن تكونى قد فرغت منها.

* * *

ابدى ماركوس كنت ارتياحه بعد أن فحصنى بدقة وقال لى أننى شفيت تماماً، وأن الهواء النقى والحياة الهادئة لهما فعل المعجزات فقلت له:

ـ أننى معك فيما يتعلق بالهواء الطلق. أما الحياة الهادئة فلا.

ورويت له كل شيء عن الخطابات المجهولة، وعن انتحار مسز سيمنجتون ومقتل أجنس وأول، فهز رأسه وقال:

ـ أننى قرأت عن هذه الجريمة ولكننى حسبت أنها جريمة غرامية.

ودعانى إلى تناول العشاء معه، ولكننى اعتذرت له بأننى مشغول، فضحك فى خبث وقال:

ـ آه... سيدة جميلة... أرى أنك شفيت تماماً. ووصلت إلى محل مارى جراى فى تمام الساعة السادسة. واستقبلتنى مارى واصبعها على شفتيها قائلة:

ـ لن تصدق نفسك... ربما كان لا يصح أن أقول هذا، ولكننا قمنا بعمل جميل.

كانت ميجان واقفة أمام المرآة تتأمل صورتها. وأعترف بأننى ما أن نظرت إليها حتى انبهرت منى الأنفاس، وكدت لا أعرفها. فقد بدت لى

طويلة القامة هيفاء، بشعر رقيق أملس. وكانت ترتدى جوارب حريرية جميلة وحذاء أنيقاً جداً أظهر جمال ساقيها. وكانت متوردة الوجه ولم تكن شفتاها بحاجة إلى الأحمر... تغيرت تغييراً تاماً، وبدت مخلوقة أخرى غير التى أتيت بها.

ورأتنى فى المرآة فاستدارت وقالت فى شىء من الهدوء والخجل معاً:

أننى... أظن أننى أحسن.

صحت:

أحسن!.. ما هذا التواضع!... هلمى بنا لتناول العشاء، وأننى لأستحق الشنق إذا لم يلتفت الرجال خلفك أكثر من مرة.

لم تكن ميجان جميلة جداً، ولكن وجهها كان غريباً ومثيراً للاهتمام. كانت ذات شخصية قوية. وجعلتها تتقدمنى ونحن ندخل المطعم، وعندما أسرع إليها رئيس السقاة، أحسست بذلك الغرور الأحمق الذى يتملك الرجل حين يتوهم أنه امتلك ما لا يمتلكه غيره.

وبعد أن تناولنا العشاء رقصنا معاً. وكانت خفيفة بين ذراعى وتجيد الرقص، وإذا أبديت دهشتى لذلك قالت أنها تعلمت الرقص وهى فى المدرسة.

وعدنا إلى المائدة وهى شديدة الابتهاج. وكنت أنا الآخر كذلك. ومر الوقت دون أن أشعر به... كنت قد جننت تماماً.

وأعادتنى ميجان إلى الأرض عندما قالت فجأة:

ألم يحن الوقت لكى نعود.

وكأننى أصبت بضربة شديدة على أم رأسى، فقد كنت أعيش منذ

ساعات فى دنيا من الخيال برفقة المخلوقة التى خلقتها. كنت مجنوناً...

وصحت:

ـ يا إلهى!

وألقيت نظرة إلى ساعتى فإذا بآخر قطار إلى ليمستوك قد انطلق. وقلت:

ـ لا تتحركى... سأتكلم فى التليفون.

واتصلت بشركة كبيرة من شركات سيارات الرميس. وطلبت منها أن ترسل إلى أمتن وأسرع سيارة لديهم، ثم عدت إلى ميجان وقلت لها:

ـ لقد انطلق القطار... سنعود بالسيارة.

ـ حقاً؟... هذا جميل.

وأحببتها كثيراً عندئذ، فإن كل شىء يبهجها. وكل ما اقترحه عليها كان يروق لها.

وعادت بنا السيارة فى جوف الليل. وكان الليل قد تأخر بنا جداً. وقلت وأنا أشعر بتأنيب الضمير:

ـ أخشى أن يكونوا قد انشغلوا لغيابك، وراحوا يفتشون عنك فى كل مكان.

أجابت فى هدوء:

لا أظن. فإنه يحدث لى أحياناً أن أخرج ولا أعود إلا وقت الغداء.

ـ ولكن اليوم فاتك الغداء والعشاء.

والظاهر أن اليوم كان من أيام ميجان السعيدة، فقد وجدنا البيت

ضارباً فى الظلام، يخيم عليه الهدوء والسكون. ومضينا إلى الواجهة الخلفية حيث تقع غرف الخدم. وقذفنا ببعض الحصى الرفيعة على ألواح غرفة روز فجاءت بعد قليل وفتحت النافذة، وما رأت ميجان حتى أسرعت وفتحت الباب وهى تقول:

ـ هذا عجيب. كنت أظن أنك ترقدين فى غرفتك، فقد تناول السيد ومس السى العشاء فى وقت مبكر، ثم خرجا معاً للنزهة. وعندما عادا سأل السيد عنك فقلت له إنك تنامين و...

وأسرعت أقاطعها قائلاً لميجان أن خير ما تفعل الآن هو أن تأوى إلى فراشها فقالت لى:

طابت ليلتك. وأشكرك من صميم قلبى، فإن هذا اليوم أسعد أيام حياتى كلها.

وانطلق بى السائق بعد ذلك إلى «ليتل فورز»، ومنحته بقشيشاً كبيراً وعرضت عليه أن يقضى الليلة فى البيت إذا أراد، ولكنه آثر العودة على الفور.

وانفتح الباب ونحن نتكلم. وكانت جوانا فى الردهة فقالت:

ـ آه... ها أنت أخيراً.

ـ هل قلقت على؟

ـ أبداً، وإنما حسبت إنك ستقضى الليلة فى لندن وتلهو قليلاً.

ـ وهذا ما فعلت تقريباً.

ورويت لها ما حدث، وعندما فرغت قالت:

ولكن يا جيرى... هل جننت؟... هذه أشياء ما كان يجب أن تقدم عليها إطلاقاً. أن ليمستوك كلها ستتحدث عن هذه المغامرة غداً.

ـ هذا جائز. ولكن لا يجب أن ننسى أن ميجان ليست إلا طفلة على كل حال.

ـ طفلة فى العشرين من عمرها. كيف تذهب إلى لندن بفتاة فى هذه السن وتلبسها من قدمها إلى رأسها. ستكون هذه فضيحة كبيرة، وأخشى يا عزيزى جيرى أن تضطر إلى الزواج من هذه الميجان التى ليست إلا طفلة.

وكانت تضحك، ولكنها كانت تتكلم بجد فى الواقع. واكتشفت فى هذه اللحظة اكتشافاً مهما جعلنى أقول:

ـ حسناً. إذا كان ولابد من الزواج بها، فسأتزوجها. بل أظن أن هذا سيروق لى.

وارتسم على وجه جوانا تعبير غريب، ونهضت وسارت إلى الباب، وهناك قالت فى لهجة جافة:

ـ كأنك لا تدرى أننى كنت أعرف هذا منذ وقت طويل. وخرجت وتركتنى وحدى والكأس فى يدى، وأنا لاأزال مشدوهاً من اكتشافى الحديث.



مغامرة الأمس

لا أعــرف بمـاذا يحس الرجل وهـو يتــقــدم لطلب الزواج، فــهــو فى الروايات جاف الحلق، تكاد ياقته أن تخنقه ويجد نفسه فى حالة مؤسفة من الانفعال.

ولكننى لم أشـعـر بأى شىء من هذا، فـقـد كـانت فى رأسى فكرة معينة رأيتها فى ذلك الوقت مباشرة ممتازة. كان على أن أدبر الأمر بأسرع ما أستطيع، ولم يكن هناك ما يدعو للانفعال.

ومضيت فى الساعة الحادية عشرة إلى بيت سيمنتجون. وفتحت لى روز ونظرت إلى نظرة كـان لهـا مـعناها. وأدخلتنى إلى الصــالون الصغير.

وشعرت بشىء من القلق، فلعل ميجان لقيت من التعنيف والتوبيخ مـا لا طاقة لها به، ولكننى اطمـأننت عندمـا دخلت، فلم يبد عليها أنها تلقت أى شىء من ذلك... كانت قد ارتدت ثيابها القديمة، ولكن الثياب نفسها بدا كأنه أصابها شىء من التغيير. لاشك لأن ميجان لم تعد كما هى. كانت تقف بطريقة أخرى كالمرأة حين تعرف قيمتها وجمالها.

وأدركت فجأة أنها أصبحت فتاة كبيرة.

قلت لها:

أرجو أن لا تكون مغامرة الأمس قد سببت لك بعض المتاعب.

أجابت فى هدوء:

ـ أبداً.

ثم غمزت لى بعينها، واستطردت تقول:

ـ الواقع أننى سمعت الكثير. قيل لى أن هذا الغياب مشبوه وغير ذلك، ولكن لا أهمية لكل هذا، فإنك تعرف طبيعة الناس. أنهم يخلقون من الحبة قبة.

هنأت نفسى لفلسفة ميجان، وانتقلت إلى سبب زيارتى فقلت:

ـ ميجان... أننى أتيت الآن لأن لدى اقتراحاً أعرضه عليك. أنك تعرفين أننى أشعر بود كبير نحوك، وأظن أنك، من ناحيتك تحبيننى قليلاً، وقد خطر لى أن أحسن شىء هو أن نتزوج.

ـ أوه!

لم تنطق بغير هذه الكلمة، ولكنها كانت تدل على أنها فوجئت... لا دهشة ولا استغراب... لا شىء أكثر من أنها بوغتت. وسألتنى بعد لحظة كشخص لم يتأكد أنه فهم تماماً:

ـ هل قلت الآن أنك تريد أن تتزوجنى؟

ـ نعم. هذا هو مطمحى الوحيد واعز رغبة لى.

ـ معنى هذا أنك تحبنى؟

ـ نعم يا ميجان... أننى أحبك.

نظرت إلى مليا وقالت أخيراً فى هدوء:

ـ أظن أنك أظرف رجل فوق الأرض... ولكننى لا أحبك.

ـ سوف أجبرك على أن تحبينى.

ـ كلا. لا أحب أن يجبرنى أحد. ثم أننى لست المرأة التى تنفعل، فإننى أعرف الكراهية ولا أعرف الحب.

ـ إن الكراهية تزول، أما الحب فلا يموت.

ـ هل هذا صحيح؟

ـ هذا ما اعتقده.

وساد صمت قصير قلت بعده:

ـ أنت ترفضين إذن؟

ـ نعم.

ـ أليس هناك أى أمل؟

ـ وما الجدوى؟

قلت:

ـ إنك على حق. لا داعى لكى تشجعينى. ومع ذلك فلن أفقد الأمل.

* * *

قطعت الطريق. عائداً إلى «ليتل فورز» وأنا مستغرق فى التفكير، وأشعر بشىء من السخط لاحساسى بأن روز، الخادمة راحت تتابعنى بعينيها.

شرحت لى، وفى اسهاب كبير، أنها لم تعد كما هى منذ موت مسز سيمنجتون، وأنه لولا الولدان ما بقيت فى البيت لحظة واحدة، وأنها ترثى كثيراً لمستر سيمنجتون المسكين، وأنه لابد لها من الرحيل على كل حال لأنها لا تستطيع أن تقوم بالخدمة فى البيت بمفردها، وأن ما من خادمة تريد أن تأتى لمساعدتها خصوصاً بعد أن وقعت جريمة قتل فى البيت.

وصحيح أن السى هولاند ظريفة ورقيقة وتساعدها كثيراً، ولكن كل ظرفها ورقتها سوف يتبخران بمجرد أن تصبح الزوجة الثانية لمستر سيمنجتون. وصحيح أيضاً أن مستر سيمنجتون لا يدرى شيئاً مما يحاك حوله، ولكنه رجل ضعيف، شأنه فى ذلك شأن كل أرمل، ولن يلبث أن تطويه مس هولاند.

واضطررت أن أستمع إلى كل محاضرتها، خاصة وأنها كانت تمسك قبعتى بين يديها، وكان لابد من الانتظار ريثما استردها.

ورحت أمشى وأنا أتساءل إذا كان فى قولها شىء من الصحة. وإذا كانت مس هولاند تعمل على أن تغدو الزوجة الثانية لسيمنجتون. وقلت لنفسى بعد امعان التفكير لماذا لا تتزوجه.. سيجد الولدان فيها أماً لهما وسيجد أبوهما فيها زوجة جميلة.

ولعلك تقول أننى كنت شديد الغرور بنفسى حين ذهبت وطلبت من

ميجان أن تتزوجنى، ولكن الحقيقة أننى كنت واثقاً جداً من أننى يجب أن أسهر على ميجان. وكنت متأكداً أنه يقع على عاتقى أن أسعدها، ومقتنعاً بأننى لن أستطيع العيش بدونها، بحيث بدا لى أن من الطبيعى أن تبادلنى نفس الشعور.

ولكننى لم أقر بالهزيمة... فإن ميجان هى المرأة التى قدر لى أن أتزوجها، وسوف أتزوجها.

ومضيت إلى مكتب سيمنجتون. واستقبلنى الرجل على الفور. ولكننى رأيت من التواء شفتيه وتوتر حركاته ما جعلنى أفهم أن زيارتى لم تسره كثيراً، وقلت له بعد تبادل التحية:

- لن أحاول اللف والدوران، ولكننى أظن أنك أدركت أننى أحب ميجان، وقد طلبت منها الآن أن تتزوجنى ولكنها رفضت. غير أننى لا أعتبر هذا الرفض منها نهائياً.

تغيرت ملامح سيمنجتون، وقرأت ما اعتمل على وجهه بسهولة. فقد كانت ميجان فى بيته عبارة عن عنصر يعكر صفاء الجو. وكنت واثقاً أن الرجل عادل وكريم، وأنه لن يفكر أبداً فى طرد ابنة زوجته من بيته، ولكن زواج ميجان كان يزيح عن كاهله حملاً ثقيلاً. وقال لى وهو يبتسم ابتسامة رقيقة:

- لم أكن أتوقع هذا صراحة. أعرف أنك تشعر بميل كبير إلى ميجان، ولكنها ليست إلا طفلة.

- ليست طفلة. أننى أعرف أنها ستبلغ الحادية والعشرين من عمرها بعد شهر أو شهرين. ومن ناحيتى أنا فإننى على استعداد لكى

أقدم لك كل المعلومات التى يمكن أن تطلبها . أننى رجل موسر، وعشت طول حياتى شريفاً، وأنا واثق أننى سأسعد ميجان.

- لست أشك فى هذا... ولكن عليها هى أن تقرر. قلت:

- لست قلقاً من هذه الناحية. ما على إلا أن أنتظر. ولكننى أردت أن أحيطك علماً بنواياى.

* * *

التقيت فى الخارج بمس اميلى بارتون، وكانت تحمل فى يدها السلة التى تحملها دائماً عندما تذهب لكى تتسوق. وخاطبتنى قائلة:

- صباح الخير يا مستر بورتون. قيل لى أنك ذهبت إلى لندن أمس.

أجبتها بأن هذا صحيح. وخيل لى أن فى عينيها كثيراً من الود، وأن فيهما أيضاً كثيراً من الفضول، فأردفت أقول:

- ذهبت لكى أعرض نفسى على طبيبى.

ابتسمت كأنها لا تصدقنى وقالت:

- يبدو أن القطار أوشك أن يفوت ميجان وأنها تعلقت به وهو منطلق.

قلت:

- بعد الحاح كبير منى. وقد رفعتها بنفسى إلى المقصورة.

- من حسن حظها أنك كنت موجوداً، ولولاك لوقع لها حادث.

ولا يمكن تصور مدى ما يشعر به الرجل من ارتباك وضيق فى

حضرة فتاة عانس رقيقة يستبد بها الفضول وانقذتنى منها مستر دين كالثروب، فقد اقتربت منا هى ومس ماربل. وقالت الأولى:

ـ صباح الخير. يبدو أنك أقنعت ميجان أخيراً بأن تشترى ثياباً جديدة وأنيقة. وأننى أهنئك على ذلك. أن الرجال عمليون فى هذه المسألة، ولو كنت مكانك لأتعبتنى هذه الفتاة فى اختيار ما تريد.

وعلى أثر هذه الملاحظة العجيبة أسرعت مسز دين كالثروب داخل محل الأسماك. وبقيت مس ماربل معى، وقالت وعيناها تبتسمان:

ـ إن مسز دين كالثروب امرأة عجيبة... إنها لا تخطئ أبداً.

قلت:

ـ لهذا السبب بالذات تثير القلق بعض الشيء.

قالت مس ماربل:

ـ إن الصدق وسلامة الطوية يسببان القلق دائماً.

* * *

أحسست بالانفعال لمجرد فكرة أننى سألتقى بجوانا، ولكن ما إن عدت إلى البيت حتى أدركت أننى أزعجت نفسى دون داع، فإن جوانا لم تكن هناك، ولم تعد لتناول الغداء. وكانت الساعة قد بلغت الثالثة والنصف عندما دخلت الصالون كالقنبلة. وكنت قد سمعت سيارة تقف أمام البيت. وانتظرت تقريباً أن أرى جريفيث ولكن السيارة انطلقت وكانت جوانا بمفردها.

وكانت مضطرمة الوجه، يبدو عليها الاضطراب، مما يدل على أن

شيئاً قد حدث فسألتها: ما الخبر؟

فتحت فمها ولكنها لم تلبث أن أطبقته، ثم انهارت فوق مقعد وهى تحدق النظر أمامها. وأعدت سؤالى فأجابت تقول هذه المرة:

ـ أننى قضيت يوماً رهيباً.

ـ ما الذى حدث؟

ـ أننى فعلت أموراً لا يمكن أن تصدقها، فقد كنت أتنزه دون ما غاية محددة، وارتقيت التل، ثم مشيت بضعة أميال أفضت بى إلى واد صغير فى وسطه مزرعة تبدو كما لو كانت ضائعة. وقلت لنفسى أننى قد أجد فيها قليلاً من اللبن أو أى شىء يمكن أن أشربه، ودخلت الفناء، وانفتح باب فى هذه اللحظة خرج منه أوين.

ـ أوين جريفيث؟

ـ حسب أن الممرضة هى التى جاءت، فقد كان بالمزرعة امرأة فى حالة وضع، وكان ينتظر الممرضة، إذ بعث بها لكى تأتى بطبيب آخر، لأنه كان يخشى أن تسوء الأمور. وما أن رآنى حتى قال لى «تعالى. سوف تساعديننى، فوجودك معى أفضل من عدمه». ولما قلت له أننى لم أفعل شيئاً كهذا من قبل، وأننى لا أعرف أى شىء قال:

ـ «إنك امرأة، أليس كذلك؟..

ـ لا أفهم إذن لماذا لا تبذلين جهدك لمساعدة امرأة أخرى». واستطرد يقول أننى سبق إن قلت له أننى اهتم بالطب وأننى كنت أود أن أكون ممرضة، وأن هذا كله مجرد كلام، وأن الفرصة أمامى الآن لكى أتصرف كانسانة حقيقية لا كبلهاء. وعندئذ فعلت أشياء لا يمكن

أن تتصورها يا جيرى، فقد أمسكت الأدوات وغليتها وناولتها له. واستولى على التعب بحيث خيل لى أننى أصبحت لا أستطيع الوقوف. وكان عملاً فظيعاً.

ـ ولكنه أنقذ الأم... والطفل أيضاً، وكان أوين يعتقد أنه لن ينقذه. يا إلهى!

وغطت جوانا وجهها بيديها. ونظر إليها فى شىء من الارتياح، وأنا أشكر جريفيث فى قرارة نفسى، فقد أرغم جوانا على أن تواجه حقائق الحياة مرة. وقلت: هناك خطاب لك فى الردهة... وأظنه من بول.

ومضيت وأتيتها بالخطاب فأخذته منى وفضته، وكان من بول حقاً. وألقت إليه نظرة سطحية ثم تركته يقع على الأرض. وأردفت تقول بعد صمت طويل.

ـ لم يكن لدى أية فكرة يا جيرى عن عمل الطبيب. أنه بحاجة إلى شجاعة كبيرة. والواقع أنه رائع جداً. لقد ظل يكافح بكل قواه، وأحسست أنه لا يريد أن يقهر ولا أن يقر بالهزيمة. كان فظاً معاً. وفظيعاً.

ـ ولكنه كان رائعاً.

لم أجب. كان خطاب بول لايزال ملقى على الأرض. ونظرت إليه فى شىء من السرور. لم يكن هناك شك فى أن جوانا قد شفيت من بول.



الخطـــاب

لا تـأتى الأمــور أبداً كــمـــا ننتظـر ونتوقع.

ولم أكن أفكر إلا فى شئونى وشئون جوانا عندما سمعت فى صباح اليوم التالى صوت ناش فى التليفون يأتينى بنبأ هام قائلاً:

ـ إنها وقعت فى أيدينا يا مستر بورتون!

ـ هل تعنى؟..

ـ هل هناك من يسمع؟..

ـ أيزعجك أن تأتى إلى القسم لحظة.

وبعد بضع دقائق كنت فى مكتب ناش، وكان معه الرقيب باركنز. وكان ناش متألقاً، وبادرنى بقوله:

ـ كانت المطاردة طويلة...

ـ ولكننا اقتربنا من النهاية.

ومد لى يده بخطاب مكتوب على الآلة الكاتبة، وكان مضمونه لطيفاً بالنسبة للخطابات الأخرى، وهذا نصه:

«لا تتوهمى إنك ستأخذين مكان الميتة. أن المدينة بأسرها تسخر منك، فسارعى بالهرب دون انتظار وإلا فات الأوان. هذا إنذار، ولا تنسى ما حدث للفتاة الأخرى. غادرى المدينة ولا تعودى أبداً».

وتلا ذلك بضع كلمات كلها سباب وقذع. وقال ناش:

ـ هذا الخطاب تلقته مس هولاند صباح اليوم.

وقال الرقيب باركنز:

ـ استغربت أنها لم تتلق أى خطاب من قبل. سألت ناش:

ـ ومن الذى كتبه؟

اختفت الفرحة من وجهه وقال:

ـ إننى آسف لأنها ستكون صدمة عنيفة لرجل شهم، ولكن لا حيلة لى. ولعله كان يشك فى الأمر.

عدت أسأله:

ـ من الذى كتبه؟

ـ مس ايميه جريفيث!

* * *

ومضى ناش والرقيب باركنز إلى بيت جريفيث بعد ظهر اليوم ومعهما أمر بالقبض. وكان ناش قد التمس منى أن أرافقهما قائلاً:

ـ إن الدكتور جريفيث يحبك كثيراً، وليس له أصدقاء كثيرون: هنا، وأظن أن الأمر لن يشق عليك كثيراً يا مستر بورتون، خصوصاً وأن

وجودك سيساعده على تلقى الصدمة.

وطرقنا البـاب، وطلب المفـتش أن يرى مس جـريفـيث، فـقـادتنا الخـادمـة إلى الصـالون حـيث أجـتـمع به مس هولاند وسـيـمنجـتـون وميجان، وكانوا يتناولون الشاى مع ايميه.

وتصـرف ناش بلبـاقـة كـبـيـرة فطلب أن يختلى بمس جـريفـيث، فنهضت وأقبلت نحونا، وخيل لى لمجرد لحظة أن مسحة من الخوف بانت فى عينيها، ولكنها تقدمتنا إلى غرفة صغيرة مواجهة وقالت فى صوت هادئ:

ـ أرجو أن لا يكون ذلك بسبب مصابيح سيارتى الخلفية.

وتكلم ناش فى هدوء وبلهجة مهذبة ونطق بالتحذيرات العادية التى يفرضها القانون، ثم قال لها أنه مضطر إلى اصطحابها معه وإن معه اذنا بالقبض عليها، وتلاه عليها، وأتذكر الآن أن التهمة التى وجهت إليها هى تحرير الخطابات المجهولة، ولكن لم يكن بالإذن أية إشارة إلى جريمة القتل.

وألقت ايميه رأسها إلى الخلف وضجت بالضحك ثم قالت:

ـ ما هذا الهراء؟... كيف تتهمنى بتحرير هذه الخطابات. لاشك أنك فقدت عقلك. أننى لم أكتب كلمة واحدة من هذا الذى تقول.

أخرج ناش من جيبه الخطاب الذى تلقته مس السى هولاند وقال:

ـ أتنكرين أنك كتبت هذا يا مس جريفيث؟

ترددت لحظة خاطفة ثم قالت:

ـ طبعاً. أننى أنكر ذلك. لم أر هذا الخطاب قبل ذلك قط.

قال ناش دون أن يحتد:

ـ أرانى مضطراً إلى أن أكذبك يا مس جريفيث، فقد شوهدت وأنت تكتبينه على الآلة الكاتبة فى المعهد النسائى فى الساعة الحادية عشرة والنصف مساء أمس الأول. وشوهدت أمس وأنت تخرجين من البيت ومعك خطابات كثيرة ذهبت بها إلى مكتب البريد.

ـ أننى لم أضع هذا الخطاب فى صندوق البريد أبداً.

ـ هذا صحيح. ولكنك أسقطته على الأرض أثناء وقوفك أمام شباك الطوابع خلسة لكى يلتقطه من يراه ويلقى به فى صندوق البريد دون أن يشك فى أمره.

ـ أبداً لم...

وانفتح الباب عندئذ ودخل سيمنجتون وقال فى إيجاز:

ـ ما الخبر؟... إذا كنت تواجهين أية متاعب يا ايميه فلا تنسى أن لك الحق فى مساندة محام، وإذا أردت أن...

ولكنه لم يقل المزيد، فقد انهارت ايميه، ويداها على وجهها، وتهالكت فوق مقعد قائلة:

ـ ليس أنت يا ريك... أخرج... أخرج يا ريك.. لا أريدك أنت.

ـ ولكنك بحاجة إلى محام.

ـ ليس أنت... لن أستطيع... لن أطيق ذلك.. لا أريد أن تعرف... كل هذا.

ولا ريب أنه فهم لأنه قال فى هدوء:

ـ سأرسل إشارة إلى ميدمان باكسهامبتون إذن، فما رأيك؟

أومأت برأسها بالايجاب وهى تبكى. وغادر سيمنجتون الحجرة، واصطدم بعتبتها بأوين جريفيث الذى خاطب ناش فى حدة قائلاً:

ـ ما الخبر؟.. أختى...

قاطعه ناش فقال:

ـ أننى آسف يا دكتور... آسف حقاً، ولكن لا حيلة لى.

ـ أتظن أنها هى التى.. كتبت هذه الخطابات؟

ـ ليس هناك أى شك فى ذلك يا دكتور.

وتحول إلى ايميه وقال:

ـ هل لك أن ترافقينا الآن يا مس جريفيث.

ونهضت. ومرت أمام أخيها دون أن تنظر إليه، واكتفت بأن تقول له:

ـ لا تكلمنى يا أوين... لا تقل شيئاً، ولا تنظر إلى بالله!

وخرجت مع رجلى البوليس. ولم تبد من أوين حركة واحدة. كان كالمصعوق. وانتظرت بضع لحظات ثم قلت:

ـ إذا كان فى استطاعتى أن أفعل شيئًا يا جريفيث فلا تتردد، وقل لى.

تمتم يقول:

- ايميه؟... لا أستطيع أن أصدق ذلك.

قلت له فى غير اقتناع كبير أن البوليس ربما أخطأ، فهز رأسه وقال:

- لو أنه أخطأ لتصرفت بغير ذلك. ولكننى ما كنت أعتقد هذا منها أبداً... بل أننى لا أستطيع أن أصدق ذلك حتى الآن.

وتهالك فوق مقعد، وبحثت عن قليل من الكونياك وأتيته به، وازدرده مرة واحدة، وأحسست أن الشراب قد أصابه بخير كثير وقال:

- أننى لم أتحمل الصدمة فى البداية، ولكننى الآن أحسن. أشكرك يا بورتون، ولكنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً... لا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً.

هممت بأن أحتج، ولكن دخلت جوانا فى هذه اللحظة، ووجهها شديد الشحوب. ومضت إلى أوين، ونظرت إلى قائلة:

- اذهب أنت يا جيرى، فأننى سأهتم به.

وفيما أنا أغلق الباب رأيت جوانا تجثو بجوار مقعده.

* * *

لن أستطيع أن أذكر الأحداث التى وقعت فى الأربع والعشرين ساعة التالية بطريقة متماسكة، فإنها أحداث كثيرة ومختلفة لا رابط بينها.

ولكننى أتذكر عودة جوانا إلى البيت. كانت شاحبة جداً وشديدة الإعياء. وقلت مداعباً فى محاولة لمواساتها:

- كيف حال الملاك الحارس؟

ابتسمت ابتسامة حزينة وقالت:

- إنه لا يريدنى يا جيرى... أنه شديد الإباء، وعنيد جداً.

حاولت أن أبتسم وقلت:

- ما عليك! أن التى أحبها لا تريدنى هى الأخرى. وبقينا مدة طويلة جالسين، أحدنا بجوار الآخر نتبادل الأسرار الحزينة.

وقالت جوانا أخيراً:

- صفوة القول أن أسرة بورتون غير مرغوب فيها فى الوقت الحالى:

قلت:

- هذا صحيح. ولكن ليس لهذا أية أهمية. حسناً أننا نعيش معاً، ففى هذا وحده العزاء.

قالت:

- قد يكون فيه بعض العزاء لك، أما بالنسبة لى فلا.

أقبل أوين فى صباح اليوم التالى، وكان شاعرياً جداً فى مديحه لجوانا فقال أنها فتاة مدهشة ومخلوقة رائعة، واسته وعرضت عليه الزواج فوراً إذا أراد. ولكن كانت هذه تضحية كبيرة منها لن يقبلها أبداً. فهى من الطيبة والنقاء بحيث لا يرضى أن تلوثها الأوحال التى لن تلبث الجرائد أن تحركها عندما تسمع بالنبأ.

وأخبرنى ناش أن التهمة ضد ايميه ثابتة دون شك. وأن التفتيش

فى بيت جريفيث أسفر عن وجود الصفحات المنزوعة من كتاب مس اميلى بارتون فى دولاب المهملات تحت السلم، مخبوءة فى لفة من الأوراق التى تستخدم فى تغطية الجدران، وأردف يقول:

- وهو مخبأ أمين، فإنه لا يخطر لأحد أن يبحث عنها بين المخلفات والمهملات. وقد وجدنا أيضاً مدقاً ضخماً وثقيلاً كان قد اختفى من معمل الطبيب، وأننى أراهنك بما تشاء على أنها ضربت أجنس وادل على رأسها به.

- وهل عثرتم على السيخ؟

- كلا. ولم نعثر عليه، فإن المسكينة مجنونة كما تدل الظواهر، ولكن ليس إلى الحد الذى يدفعها إلى أن تسهل مهمتنا، فى حين أنه يكفيها أن تغسله، وأن تعيده إلى درج المطبخ.

وكان بيت القس واحداً من آخر الأماكن التى عرف النبأ. وذهبت مس ماربل ولم تصدق ذلك وقالت:

- كلا يا مستر بورتون... هذا محال... أننى واثقة من ذلك تماماً.

- هو محال كما تقولين، ولكنه صحيح مع ذلك. لقد نصب ناش كمينا، وشوهدت ايميه وهى تكتب الخطاب.

- هذا جائز... قد تكون هذه النقطة صحيحة.

- ووجدوا فى بيتها الأوراق التى انتزعت من كتاب مس اميلى بارتون، منقوصاً منها الأحرف التى ركبت منها كلمات الخطابات السابقة.

نظرت مسز ماربل إلى مشدوهة ثم قالت فى صوت خافت:

- ولكن هذا فظيع... فظيع جداً حقاً.

وأقبلت مسز دين كالثروب عندئذ وقالت:

- ماذا جرى يا جين؟

تمتمت مس ماربل فى صوت حزين تقول:

- يا إلهى... يا إلهى... ما العمل؟

وكررت مسز دين كالثروب سؤالها، ولكن مس ماربل لم تسمعها، وتابعت فكرتها قائلة:

- فى الإمكان عمل شىء طبعاً، ولكن ما هو؟... أننى عجوز جداً، وجاهلة... وغبية كذلك.

ولم أدر ماذا أقول، وتنفست الصعداء وأنا أرى مسز دين كالثروب تجر صديقتها.

ولكننى رأيت مس ماربل بعد ظهر ذلك اليوم، وكان الوقت متأخراً جداً، وكنت عائداً إلى البيت. كانت واقفة فوق الجسر الصغير، على مقربة من بيت مسز كليت، وكانت تتحدث مع ميجان. وأردت أن أتحدث مع هذه الأخيرة فأسرعت الخطى نحوهما، ولكننى ما كدت أقترب منهما حتى استدارت ميجان وابتعدت. وهممت بأن اتبعها وأنا غاضب، ولكن مس ماربل اعترضت طريقى قائلة:

- دعنى أقول لك كلمة يا مستر بورتون... لا تحاول اللحاق بها الآن... أننى أعرف ما أقول... دع لها شجاعتها.

ونزلت عند رأيها يخامرنى إحساس بأن مس ماربل تعرف شيئاً لا أعرفه أنا. وأحسست بالقلق دون أن أدرى لماذا.

ولم أعد إلى البيت، وإنما استدرت وعدت إلى شارع هاى ستريت، حيث مشيت طويلاً دون غاية معروفة، ولا أستطيع أن أقول ماذا كنت أنتظر ولا فيم كنت أفكر.

ورأيت مس ماربل فى هذه الأثناء للمرة الثالثة، وكانت خارجة، هذه المرة، من قسم البوليس.

* * *

من أين تأتى مخاوفنا، وكيف تتشكل، وأين تختفى قبل أن تتكشف لنا؟

عبارة واحدة سمعتها وسجلتها فى ذهنى، ولم أستطع أن أنساها.

«خذنى من هنا... أرجوك... لو تعرف كم أشعر بأننى شقية وتعيسة؟

لماذا قالت ميجان هذه العبارة، ولم هذا الإحساس بأنها شقية وتعيسة.

أكان ذلك لأنها تشعر بأنها مسئولة عن موت مسز سيمنجتون بطريقة ما؟

ميجان؟... هذا محال. لا يمكن أن تكون ميجان هى التى كتبت تلك الخطابات الفظيعة المملوءة بالبذاءات والقذارات.

ومع ذلك فقد قال أوين جريفيث أن حالة كهذه وقعت فى الاقليم المجاور فى العام الماضى، وكانت كاتبة الخطابات فيها فتاة محترمة ومهذبة لا يمكن أن يتطرق الشك إليها.

كلا، كلا. لا يمكن أن تكون ميجان.

ولكننى سمعت أن أباها كان وغدا شريرا، فهل يمكن أن تكون الوراثة قد لعبت دورها؟

«أننى لست المرأة التى تنفعك، فإننى أعرف الكراهية ولا أعرف الحب».

ميجان... حبيبتى ميجان... لا يمكن أن يكون ذلك... ليست عندها الشجاعة الكافية لكى تقدم على مثل هذا العمل. ولكن ماذا قالت تلك العانس العجوز... أن ميجان شجاعة... ولماذا يجب أن تكون شجاعة؟... لماذا؟

عذبتنى كل هذه الأفكار. ولكن سرعان ما انتهت الأزمة.

ومع ذلك فقد أحسست بحاجتى لأن أرى ميجان. فخرجت فى الساعة التاسعة والنصف من مساء نفس ذلك اليوم لكى أذهب إلى بيت سيمنجتون.

وخطرت لى وأنا فى الطريق، فكرة جديدة عن امرأة لم يفكر فيها أحد. هذا ما لم يكن ناش قد...

ولكن كان ذلك بعيد الاحتمال... بل كان محالا.. كنت أعتقد ذلك من قبل ولكننى لا أدرى الآن... ربما يكون بعيد الاحتمال... ولكنه

محال حتماً.

وأسرعت الخطى، لأنه كان من الضرورى أن أرى ميجان فوراً.

واجتزت الباب الحديدى وتقدمت نحو البيت. وكان الظلام حالكاً، والرؤية متعذرة. وبدأ الرذاذ يهطل وكانت احدى نوافذ الدور الأرضى مضاءة. وترددت لحظة ثم، بدلاً من أن أمضى إلى الباب العمومى انحرفت نحو الضوء. وتقدمت متلصصاً، وأبعدت بعض الأغصان فى حذر وأنا منحن قليلاً. وكانت الستائر متباعدة، والجزء العلوى من الشباك مفتوحاً، كانت الرؤية واضحة، واستطعت أن أرى وأن أسمع فى وضوح.

رأيت أمامى سيمنجتون مضطجعاً فى مقعد كبير، والسى هولاند ترفو قميص طفل، وسمعتها تقول:

- إذا أردت رأيى صراحة يا مستر سيمنجتون فإننى أظن أن الصغيرتين قد أصبحا الآن فى سن تؤهلهما للالتحاق بمدرسة داخلية. واعترف أن هذا يحزننى كثيراً، فأنت تعلم كم أحبهما معاً.

قال سيمنجتون:

- أظن أنك على حق فيما يتعلق ببريان. سأدخله كلية وينهايز التى تلقيت فيها العلم، أما كولان فمازال صغيراً، وسأبقيه بالبيت سنة أخرى.

- أننى أفهمك تماماً.

كان حديثاً بسيطاً لا تشوبه شائبة.

وانفتح الباب، ودخلت ميجان. وقرأت فى عينيها العزم والحزم، الشىء الذى أدهشنى. وكان وجهها هادئاً، ولكن عينيها كانتا متألقتين بشكل غريب. كان يبدو أنها شديدة الثقة بنفسها، وأنها لم تعد طفلة كما كانت من قبل.

وتحدثت إلى أبيها، ولاحظت أنها لم تقل له «أبى» ولا «مستر»، وإنما اكتفت بأن قالت له:

ـ إننى أريد أن أتحدث إليك... إليك وحدك.

قطب سيمنجتون حاجبيه مشدوهاً. وصمدت ميجان أمام نظرته، فتحول إلى مس هولاند وقال:

ـ هل لك يا مس هولاند...

وكانت هذه الأخيرة قد نهضت واقفة، فسارت نحو الباب. وابتعدت ميجان لكى تفسح لها الطريق. وإذ بلغت السى الباب توقفت لحظة وألقت نظرة من فوق كتفها. ومرة أخرى لاحظت نقاء قسماتها. كانت جميلة جداً... جميلة كتمثال من تماثيل اليونان القديمة وعندما أتذكرها الآن أراها فى مخيلتى على هذه الصورة دائماً... رأسها مائل قليلاً ووجهها هادئ ويدها على أكرة الباب والقميص فى يدها الأخرى وقد ضمتها إلى نهدها.

وخرجت وأغلقت الباب.

وقال سيمنجتون وهو بادى الانفعال:

ـ ماذا هناك يا ميجان... ماذا تريدين؟

كانت تقف أمامه بجوار المنضدة. ومرة أخرى قرأت إمارات العزم البارد على وجهها. واكتشفت فى نفس الوقت نوعاً من القسوة لم أكن أعرفها فيها.

فتحت فمها لكى تنطق بتلك الكلمات التى جمدت الدم فى عروقى:

- أريد نقوداً.

قال سيمنجتون فى حدة:

- أما كان فى مقدورك الانتظار حتى صباح الغد لكى تطلبى ما تريدين؟... ولكن ما معنى هذا؟... ألا تكفيك نقودك؟

كانت كلمات عادية... كلمات رجل لا يعرف معنى العاطفة ولا يرفض سماع كلمات معقولة. وأجابته ميجان:

- ولكننى أريد نقوداً كثيرة.

اعتدل فى جلسته وقال:

- ستبلغين الرشد بعد شهور. وسيعطيك الوصى الثروة التى خلفتها لك جدتك.

قالت:

- إنك لم تفهمنى... إنما أريد النقود منك أنت.

وتلاحقت كلماتها وهى تستطرد قائلة:

- لم يقل لى أحد الكثير عن أبى لأنهم أخفوا حقيقته عنى، ولكننى أعرف تماماً أنه حكم عليه بالسجن، وأعرف لماذا... لأنه مارس

الابتزاز.

وأردفت تقول بعد صمت قصير:

ـ حسناً... أننى ابنته، ولا ريب أننى ورثت عنه خصاله. ومهما يكن فإننى أطلب منك نقوداً، وسوف تعطينى ما أريد لأنك إذا رفضت فسأقول ما رأيتك تفعل فى اليوم الذى ماتت فيه أمى... أننى أتكلم عن القرص الذى به المسحوق الذى تناولته.

وسكتت. وكانت قد نطقت بالكلمات الأخيرة فى بطء وفى وضوح تام. وبقى سيمنجتون هادئاً جداً ثم قال فى هدوء:

ـ لا أفهم ماذا تعنين.

أجابت:

ـ بل تفهم تماماً ما أعنيه.

وكانت تبتسم ابتسامة شريرة.

ونهض سيمنجتون. ومضى إلى مكتبه وأخرج دفتر شيكاته من جيبه، وحرر شيكاً منها أعطاه لميجان بعد أن جففه بالنشافة، وقال:

ـ إنك فتاة كبيرة الآن، وأفهم تماماً رغبتك فى شراء ما تريدين من ثياب وحلى. أما الباقى فلا أدرى عم تتكلمين. ولكن لا أهمية لهذا. ومهما يكن فاليك هذا الشيك.

نظرت إلى الشيك فاحصة ثم قالت:

ـ شكراً... هذا يكفى.

ودارت على عقبيها، وغادرت الغرفة يتابعها سيمنجتون بعينيه.

وعندما استدار أدهشنى ما ارتسم على وجهه. وأتيت بحركة إلى الأمام على غير غرض منى، ولكن حركتى هذه لم تلبث أن توقفت، فقد انزاحت الأغصان التى أبعدتها منذ لحظات، وأحاطت بى ذراعان قويتان فى نفس الوقت الذى سمعت فيه ناش يهمس فى أذنى قائلاً:

ـ تمالك روعك يا بورتون... بحق الله!

ثم ارتد إلى الوراء فى حذر كبير وهو يجرنى من ذراعى. وعندما خرجنا إلى الطريق اعتدل فى وقفته وجفف جبينه وقال:

ـ كان لابد أن تأتى طبعاً!

لم أرد على مزاحه، وإنما قلت:

ـ إن هذه الفتاة ليست فى أمان يا ناش. ألم تر وجه سيمنجتون؟... لا يمكن أن نتركها هنا.

أمسكنى القوميسير من ذراعى وقال:

ـ سوف تصغى إلى الآن يا بورتون.

* * *

أصغيت إليه. ولكن لم يرق لى ما قال بيد أننى اضطررت أن أوافقه، واشترطت عليه أن أكون موجوداً، فقبل مشترطاً بدوره أن أطيعه.

وهكذا دخلت البيت من الباب الخلفى معه ومع باركنز.

واختبأت مع ناش خلف ستارة من القطيفة فى طرقة الدور الأول. وعندما دقت ساعة الردهة دقتين، خرج سيمنجتون من غرفته ومضى إلى غرفة ميجان.

ولم أتحرك، فقد كنت أعرف أن الرقيب باركنز كان يختبئ فى الغرفة، وكنت أعرف عنه أنه رجل شجاع يعرف مهنته.

وانتظرت بقلب واجف. ورأيت سيمنجتون يخرج من الغرفة ويهبط السلم وهو يحمل ميجان بين ذراعيه. وتبعناه، أنا وناش، عن بعد.

ودخل سيمنجتون المطبخ. وكان قد فرغ من وضع رأسها فى الفرن وفتح صنبور الغاز عندما دخلنا. وأضاء ناش النور.

وكانت هذه نهاية ريتشارد سيمنجتون، ولم يفكر حتى فى الدفاع عن نفسه، فقد قامر وخسر، وكان يعرف ذلك فلم يقاوم.

* * *

أغلقت صنبور الغاز على الفور، وحملت ميجان إلى الدور الأول حيث أرقدتها فى فراشها.

وجلست على حافة الفراش، فى انتظار أن تسترد وعيها، وأنا ألعن ناش من وقت لآخر، وكان يقف بجوارى.

ـ كيف تعرف أنها ستسترد وعيها.. أقول لك أن هذه كانت مغامرة كبيرة.

ولكنه طمأننى بقوله:

- إنما هى غائبة عن الوعى تحت تأثير مخدر دس فى اللبن الذى تتناوله كل ليلة قبل أن تنام. لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك، فإن سيمنجتون لم يكن يستطيع المغامرة بأن يدس لها السم. إن إلقاء القبض على مس جريفيث يسوى أموره بطريقة رائعة، وكان يهمه أن لا تقع بالبيت ميتة أخرى غامضة. لم يكن يريد موتاً عنيفاً ولا حالة تسمم، لأن فى ذلك كل الخطر. ولكن أن تحزن فتاة لموت أمها وتنتحر بأن تضع رأسها فى فرن الغاز، فليس فى ذلك ما يريب. سيقول الناس أنها لن تكن طبيعية، وأن نهاية أمها المفجعة أصابتها بصدمة.

نظرت إلى ميجان، وكانت لاتزال نائمة وقلت:

- ألا ترى أنها لا تستيقظ سريعاً؟

- هل سمعت ما قال جريفيث؟.. أن القلب والنبض سليمان. وما علينا إلا أن ننتظر.

وسرت بجسد ميجان قشعريرة فى هذه اللحظة. وتمتمت ببضع كلمات، فأسرع القوميسير بالانسحاب فى هدوء:

- وفتحت عينيها وقالت:

- جيرى!

- حبيبتى!

- هل أجدت القيام بدورى؟

- كما لو أنك تمارسين الابتزاز منذ المهد.

أطبقت جفنيها وقالت:

- إننى كتبت لك أمس.. فقد أردت أن تعرف، إذا ما حدث وساءت الأمور. ولكن غلبنى النعاس فلم أستطع أن أفرغ من رسالتى.. إنها هنا.. تحت مرفقة الورق.

ومضيت فأخذت الرسالة ثم عدت وجلست بجوارها لكى أقرأها.

حبيبى جيرى..

أخذت كتاب شكسبير الآن وقرأت القصيدة التى تبدأ هكذا:

أنت لذهنى كالنور للحياة.

وكلمسة المطرة الحلوة للأرض المشتاقة للماء.

واكتشفت عندئذ أننى أحبك، لأن هذا هو ما يدور فى ذهنى.



مسز ماربل

قالت مسز دين كالثروب: ها أنت ترى أخيراً أننى كنت على حق باستنجادى بالخبير الذى حدثتك عنه.

نظرت إليها مدهوشاً. كنا جلوساً فى صالونها. وكانت الدنيا تمطر سيلاً فى الخارج والنار تتأجج فى المدفأة. وقلت:

- الخبير الذى أتيت به؟.. ولكن أين هو؟.. وماذا فعل؟

قالت مسز دين كالثروب:

- قلت خبيراً.. ولكنه ليس رجلاً.. إنما هو امرأة.

وأشارت بيدها إلى مس ماربل، وكانت تزاول شغل الإبرة، وعادت تقول:

- نعم. أنها هى الخبير.. مس ماربل.. جين ماربل. أنظر إليها جيداً. أنها تعرف كل أنواع شرور البشر.

احتجت العانس العجوز قائلة:

- فى هذا القول مبالغة كبيرة.

- أبداً يا عزيزتى.. هذه هى الحقيقة الحقة. قالت مس كاربل:

ـ يجب أن أعترف بأن الذى يعيش طوال عمره فى قرية صغيرة يتعلم الكثير عن طبيعة البشر. والمهم عند التحقيق فى إحدى القضايا دراستها دون رأى مسبق، فإن أغلب الجرائم بسيطة، وهذا هو الحال فى هذه الجريمة بالذات، فقد كانت واضحة ومنطقية وجلية وفظيعة طبعاً.

ـ بل كانت بشعة.

ـ كانت الحقيقة ساطعة للعيان، وأنت قد أحسست بها تماماً يا مستر بورتون.

ـ أنا؟..

ـ أجل. أنك قلت لى كل شىء، فإنك قد أدركت العلاقات القائمة بين كل عناصر القضية، ولكنك افتقدت الثقة فى نفسك، لأنك لم تحاول أن تفسر ما كنت تحس به، مثال ذلك تلك العبارة التى أثارت حنقك: «لا يوجد دخان من غير نار». أن هذه العبارة خدعت الجميع فوجهوا أبحاثهم وجهة أخرى، وأولوا اهتمامهم للخطابات المجهولة فى حين أنه لم تكن هناك خطابات مجهولة.

ـ اسمحى لى يا عزيزتى مس ماربل أن أقول لك العكس فقد تلقيت أنا خطاباً منها.

ـ أعرف ذلك، ولكنها لم تكن خطابات مجهولة حقاً. وصديقتنا العزيزة مود الجالسة معنا حدست ذلك. فحتى فى ليمستوك توجد فضائح كثيرة وأستطيع أن أؤكد لك أن نساء البلدة يعرفنها جيداً. ولو أن امرأة هى التى كتبت هذه الخطابات لضمنتها فضائح حقيقية. أما الرجل فإنه لا يهتم عادة بالاشاعات التى تدور، خصوصاً إذا كان رجلاً

متحفظاً كثير المشاغل كمستر سيمنجتون، ولو أن هذه الخطابات كانت خطابات مجهولة حقاً وأن امرأة كتبتها لكانت أكثر دقة بكثير. فإذا نحن أهملنا الدخان فماذا يبقى؟.. أعنى إذا أهملنا الخطابات لكى نهتم بالنار فإننا نجد أنفسنا أمام حقائق واقعية. وأنا أبالغ حين أقول حقائق لأننا لا نجد أنفسنا إلا أمام حقيقة واحدة وهى أن مسز سيمنجتون ماتت.

ومن الطبيعى أن نتساءل من الذى يستفيد من موت مسز سيمنجتون. وفى حالة كهذه فإن أول شخص نفكر فيه هو الزوج طبعاً، فهل هناك سبب أو دافع يجعله يتمنى موت زوجته؟.. وبطبيعة الحال يتجه فكرنا عندئذ إلى امرأة أخرى.

وعرفت بين ما عرفت أن فى بيته مربية شابة وجميلة جداً. كان الأمر واضحاً، فإن رجلاً ذا طبيعة قاسية وقلب بلا إحساس متزوج بامرأة عليلة ومريضة بالأعصاب لابد أن يعشق فتاة رائعة الجمال تقيم معهما.

وعندما يعشق الرجل وهو فى سن متقدمة فإن المرض يكون خطيراً. ويمكن أن نتكلم عن الجنون عندئذ. ومستر سيمنجتون، كما استطعت أن أعلم لم يكن أبداً بالرجل الشهم. كانت صفاته سلبية، ولم يستطع مقاومة الجنون الذى بدأ يتملكه. وفى مدينة صغيرة كليمستوك لم يكن للمسألة التى تشغله إلا حل واحد وهو أن مسز سيمنجتون يجب أن تختفى. كان سيمنجتون يريد أن يتزوج المربية، ولما كانت هذه الأخيرة فتاة شريفة لا تقبل أن تقف موقفاً زائفاً كان هو نفسه لا يرضاه. ولما كان يحب ولديه وليس فى نيته أن يتخلى عنهما فقد أراد كل شيء.. أراد البيت والولدين واحترام مواطنيه والسى. ولكى يحصل

على كل هذا كان لابد له من أن يدفع الثمن وأن يقتل.

وأبدى الآن رأيي المتواضع فأقول أنه تصرف بحذق كبير، فبفضل تجاربه فى القضايا الجنائية لم يكن يجهل أن المرأة المتزوجة إذا ماتت فى ظروف مشبوهة فإن الشبهات ترقى إلى الزوج على الفور. وكان يعرف أن الموت إذا حدث عن طريق السم فإن هناك احتمالات لاستخراج الجثة فى أى وقت، ولهذا قرر أن يبدو موت زوجته كحادث عرضى جاء نتيجة لأحداث أخرى فاختلق قصة الخطابات المجهولة، وكان من الحذق والدهاء بحيث حمل رجال البوليس على الاشتباه بأن امرأة هى التى تكتبها، وكانوا على حق فى ظنهم هذا لأنه حرر تلك الخطابات على منوال تلك التى سبق أن حررتها امرأة فى مقاطعة مجاورة فى العام الماضى.

ولما كان على علم بأساليب البوليس وطرقهم فى التحرى والاستنتاج وفحص الخطوط والآلات الكاتبة فقد أعد الخطابات مسبقاً وكتب ظروفها كلها قبل أن يتبرع بآلته إلى المعهد النسائى، وانتهز فرصة تركته فيها مس بارتون وحده فى غرفة الصالون ببيتها وانتزع بضع أوراق من كتاب عرف كيف يختاره، فإن من النادر أن يفتح أحد كتباً من كتب المواعظ.

وأخيراً، وبعد أن عمل على انتشار قصة الخطابات المجهولة، انتقل إلى الخطوة الضرورية، وقرر أن يقوم بضربته فى أصيل يوم خرجت فيه المربية مع الولدين وابنة زوجته والخادمتان لأنه كان يوم أجازتهما وما كان فى مقدوره طبعاً أن يتوقع أن تتشاجر أجنس مع صديقها وتعود إلى البيت.

سألتها جوانا:

- ولكن ماذا رأت بالذات؟

- لا أدرى. ولكننى أعتقد طواعية أنها لم تر شيئاً على الإطلاق.

- إذن فقد قتلها بدون سبب؟

- أظن أنها بقيت أمام النافذة تنتظر أن يأتى صديقها لمصالحتها. وعندما أقول أنها لم تر شيئاً فإننى أعنى ولا أى أحد آخر. ولما كانت الفتاة المسكينة بليدة ذهنياً فقد كان لابد لها من بعض الوقت لكى تفهم غرابة الأمر، لأن مسز سيمنجتون، كما يبدو. لم تتلق خطاباً مجهولاً بعد ظهر ذلك اليوم.

- أو لم تتلق خطاباً حقاً؟

- طبعاً لا. أن الجريمة ارتكبت بكل بساطة كما قلت لك. فقد وضع سيمنجتون السيانور فى القرص الذى كان يجب أن تتناوله فى ذلك اليوم، وهو القرص الذى كان فوق القمة. ولم يبق عليه بعد ذلك إلا أن يعود إلى البيت قبل الجميع، أو على الأقل مع مس هولاند، وأن ينادى زوجته ويسرع إلى غرفتها ويضع قليلاً من السيانور فى الكوب الذى شربت منه بضع جرعات لكى تبتلع القرص، وأن يلقى فى الموقد الخطاب المجهول بعد أن يجعده ويضع فى يد زوجته قصاصة من الورق كانت قد كتبت عليها عبارة «أننى لا أستطيع».

وتحولت مس ماربل إلى وقالت:

- وقد أصبت أنت أيضاً فى هذه النقطة، فإن هذه القصاصة كانت غير معقولة، فإن الأشخاص الذين ينتحرون لا يكتبون رسائلهم الأخيرة

على قصاصة من الورق وإنما على ورقة كاملة، وفى أغلب الأحيان يضعون هذه الورقة فى مظروف. أما تلك القصاصة فقد كان أمرها مزعجاً، وقد أحسست أنت بذلك.

قلت:

- أؤكد أنك تحسنين الظن كثيراً بمواهبى. أن هذه القصاصة لم توح إلى بشىء.

- لا تعتقد هذا يا مستر بورتون، وإلا فلماذا أحدثت فيك الكلمة التى تركتها أختك بجوار التليفون كل هذا التأثير.

قلت فى بطء:

- «إذا تكلم جريفيث فقل له أننى لا أستطيع يوم الثلاثاء».. نفس الكلمات.

ابتسمت مس ماربل وقالت:

- ها أنت قد أدركت يا مستر بورتون. لقد وجد مستر سيمنجتون رسالة مكتوبة بنفس الطريقة. وأدرك الفائدة التى تعود عليه منها على الفور، فقطع الورقة التى بها هذه الكلمات ليستخدمها فى اللحظة المناسبة، وبهذا تترك زوجته رسالتها الأخيرة بخط يدها.

قلت:

- هل تكشفت لك مواهبى الخارقة بطريقة أخرى؟ ابتسمت مس ماربل مرة أخرى وقالت:

- إنك أرشدتنى إلى الطريق الصحيح، فإنك جمعت الحقائق حسب تسلسلها المنطقى، وانتهيت بأن أطلعتنى على أهم شىء وهو أن مس هولاند لم تتلق خطابات إطلاقاً.

ـ خطر لى أمس أنهـــا هـى التى ترسل الخطابات وأن هـذا هـو السبب فى أنها لم تتلق منها شيئاً.

هزت مس ماربل رأسها وقالت:

ـ كـلا. أن الذين يكتبـون الخطابات المجـهـولة يحـرصـون على أن يرسلوا لأنفسهم بعضـهـا، وأظن أنهم يرضـون بذلك نزعة فـى أنفسهم. ولكن حقيقة أن مس هولاند لم تتلق شيئاً من هذه الخطابات بدت لى أهـمـيتـهـا لأننى رأيت فيـهـا دلالة ثمـينة. وكانت هذه نقطة ضـعف فـى سـيـمنجتون وغلطته الوحـيـدة، فإنه لم يستطع أن يقنع نفسه بكتابة خطاب به عبـارات نابيـة للمـرأة التى يحبـهـا، وهذه سـمـة غـريبـة من سمات علم النفس، ونقطة طيبة له ولكنها نقطة تسببت فى ضياعه.

سألتها جوانا:

ـ ولكنه قتل أجنس أيضاً، فهل كان ذلك ضرورياً؟

أجابت مس ماربل:

ـ ربما. هناك شىء لا تستطيعين أن تفـهـمـيـه يا عـزيـزتى، وهو أن القـاتل، بعـد أن يرتكب جـريمته الأولى لا يفكر بعـد ذلك تفكيراً سليماً ولا يقـدر الحقـائق طبقـاً لأهميتهـا الحقيقية. إن سيمنجتون سمع بكل تأكيد أجنس وهى تتكلم فى التليفون مع مارى. قالت لها أن هناك شيئاً يزعجها منذ موت سيدتها، وأنه شىء لا تفهمه، وأدرك بذلك أنه يواجه خطراً. فإن تلك الغبية الصغيرة رأت شيئاً وتعرف شيئاً ما.

ـ ولكن متى قتلها؟.. يبدو أنه لم يغادر مكتبه طوال فترة بعد الظهر.

ـ لا ريب أنه قتلها قبل أن يمضى إلى مكتبه. كانت مس هولاند فى

غرفة الطعام أو ربما كانت فى المطبخ. فخرج إلى الردهة وفتح الباب ثم صفقه لكى يوهمها بأنه خرج، ثم مضى واختبأ فى خزانة الثياب. ولم تلبث أن بقيت أجنس وحدها فى البيت، فخرج وقرع جرس الباب العمومى ثم أسرع إلى مخبئه من جديد. وعندما همت أجنس بأن تفتح الباب فاجأها من الخلف وضربها على رأسها ثم قتلها وأخفى جثتها فى الدولاب، وأسرع بعد ذلك إلى مكتبه متأخراً قليلاً، ولكن أحداً لم يلحظ ذلك.

صاحت مسز دين كالثروب:

ـ يا له من وحش!

قالت جوانا:

ـ تبقى بعد ذلك ايميه جريفيث. أعرف أن البوليس عثر على المدق الذى سرق من معمل أوين وأنه عثر على السيخ كذلك. فهل تعرفون أين وجدوهما؟.. فى أحد الأدراج الخاصة بالملفات القديمة فى مكتب سيمنجتون. ولكنه لم يقتل أجنس بهذا المدق، وإنما بثقالة ساعة ثقيلة، وقد وجدها رجال البوليس ملوثة بالدم فى نفس الدرج. ويعتقد البوليس أنه سرق المدق فى اليوم الذى ألقوا فيه القبض على ايميه جريفيث وأنه أخفى الأوراق المنزوعة من الكتاب عندها فى نفس اليوم. وأعود الآن إلى سؤالى الأول. ما وضع ايميه جريفيث فى كل هذا. لقد رآها رجال البوليس وهى تكتب ذلك الخطاب.

قالت مس ماربل:

ـ إنها كتبته فعلاً. وهذا أمر لا يقبل الشك.

ـ ولكن لماذا؟

- يا إلهى! ألم تدركى يا عـــزيزتى أن ايميــه جـــريفـــيث أحـــبت سيمنجتون طوال حياتها.

واستطردت مس ماربل تقول:

- كانا صديقين منذ وقت طويل، وأظن أن ايميه قالت لنفسها، بعد أن ماتت مسز سيمنجتون، أنها ذات يوم..

وسعلت مس ماربل ولم تكمل عبارتها ثم استأنفت تقول:

- ثم راح الجـــميع يتكلمــون فى البلدة عن مطامح السى هولاند. ودمى قلب ايميــه ورأت فى مس هـولاند دســاسـة تريد أن تســرق حب الرجل الذى لا تستحقه، وانتهت بأن غلبها الإغراء. لماذا لا تضيف إلى الخطابات المجهولة خطاباً يخيف السى ويحملها على مغادرة البلدة. بدا لها أن هذا الأمر لا خطر منه وحسبت أنها توخت كل الحذر. ولكن عندما تلقت السى ذلك الخطاب ذهبت به إلى سيمنجتون، وأدرك هذا الأخير على الفور أن ايميه هى التى كتبته كما أدرك الامكانيات التى سنحت له لكى يفرغ من هذه القضية نهـائياً ويفلت من العقـاب. ولم يكن هذا العمل جميلاً منه فى الواقع، ولكنه كان خائفاً، وكان يعلم أن البوليس لن يتخلى عن هذه القضية ما لم يهتد إلى كاتب الخطابات، وعندمـا ذهب بالخطاب إلى ناش وقـال له هذا الأخــيـر أن ايميــه شوهدت وهى تكتبه رأى أنها فرصة لن تعوض.

ولهـذا ذهب وأسـرته الصـغيـرة لتناول الشـاى عند آل جـريفـيث، ومضى رأساً من مكتبه وحافظته فى يده وفيها الصفحات المنزوعة من الكتـاب، ودبر أمره لكى يخـفيهـا فى الدولاب، تحت السلم، وهى فكرة صائبة منه لأن المخبأ أعاد إلى الأذهان المكان الذى عثروا فيـه على

جثة الخادمة، ولأنه كان واثقاً أنه سيكون أول مكان يفكر البوليس فى تفتيشه.

قلت:

ـ هناك شىء يا مس ماربل لن أستطيع أن أغفره لك، وهو ذلك الدور الخطر الذى حملت ميجان على القيام به.

ـ كان لابد من عمل شىء أيها الشاب، فإن القاتل كان قوياً جداً ومعدوم الضمير. ولم يكن هناك أى دليل، وكنت بحاجة إلى شخص لكى يساعدنى.. شخص شجاع وذكى وقد وجدت هذا الشخص.

ـ ولكن الخطر كان جسيماً بالنسبة لها:

ـ نعم. كان الأمر خطيراً، ولكننا لم نخلق لكى نهرب من الخطر يا مستر بورتون، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بانقاذ حياة واحد منا برئ.. هل فهمتنى؟



الحقيقة

شارع هاى ستريت، فى الصباح خرجت مس اميلى بارتون من محل البدال وبيدها شبكة التموين، وكانت متوردة الوجنتين، متألقة العينين وصاحت تقول:

- عزيزى مستر بورتون.. أننى لا أستطيع الصبر هل تعرف أننى سأقوم برحلة بحرية؟

- أرجو أن تستمتعى بها تماماً.

- سوف استمتع بها طبعاً. ما كنت لأجرؤ أبداً على السفر وحدى، ولكن تدبر كل شىء فجأة كما لو أن القدر أراد أن يتدخل، فمنذ وقت طويل وموارد لا تسمح لى بالاحتفاظ بليتل فورز، وكنت أعلم ذلك جيداً، ولكننى لم أشأ أن أرى البيت ينتقل إلى أيد غريبة. وها أنت ذا قد اشتريته لكى تقيم فيه، أنت وميجان. وهذا شىء آخر. وإذا بايميه تخرج من هذه المحنة الفظيعة ولا تدرى ماذا يفعل، لأن أخاها سيتزوج ولا يمكن أن تتصور كم سررت عندما عرفت أنكما قررتما الاستقرار هنا. ولهذا قبلت ايميه أن تأتى معى. وسنتغيب مدة طويلة، بل أن من

المحتمل..

وخافت من صوتها واستطردت:

ـ من المحتمل أن نطوف بالعالم، فإننى أشعر بالاطمئنان مع ايميه لأنها تعرف كيف تدبر الأمور. وسيكون ذلك رائعاً. ألا ترى أن كل هذا جميل حقاً؟

فكرت لمجرد لحظة خاطفة فى مسز سيمنجتون واجنس وادلى، وكل منهما ترقد فى قبر صغير بليمستوك، وتساءلت هل يمكن أن يكون هذا رأيهما؟ ولكننى لم ألبث أن تذكرت أن صديق أجنس قد أهملها وهجرها وأن مسز سيمنجتون لم تكن رقيقة مع ميجان، وأنه مقدر علينا جميعاً أن نموت ذات يوم، ولهذا أكدت لمس اميلى الظريفة أن كل شىء أصبح على ما يرام.

وبينما كنت أقترب من الباب الحديدى لبيت سيمنجتون خرجت ميجان وجاءت للحاق بى، يتقدمها كلب ضخم كاد أن يوقعنى فى حماسة المفرط لإظهار مودته.

وقالت ميجان:

ـ أليس جميلاً.

ـ ولكنه متحمس جداً.. أهو لنا؟

ـ نعم. إنه هدية جوانا بمناسبة زواجنا. أنهم دللونا جميعاً. لقد أرسلت لنا مس ماربل شالا جميلاً من الصوف، وأهدانا مستر باى طاقماً ثميناً للشاى، وأرسلت السى هذا السخان..

ـ السى هولاند:

- نعم. أنها التحقت بعيادة طبيب للاسنان ويبدو أنها مسرورة جداً.. ولكن ماذا كنت أقول؟

- إنك كنت تحصين الهدايا التى جاءتنا بمناسبة زواجنا. يجب أن تتوخى الحذر لأنه لابد لنا من اعادتها إذا ما غيرت رأيك.

- لن أغير رأيى. ولكن ماذا هناك أيضاً. آه. إن مسز دين كالثروب أرسلت جعراناً مصرياً.

- إنها امرأة غريبة الأطوار.

- وأرسلت لنا مارى مفرشاً جميلاً لمنضدة الشاى. وقادتنى ميجان إلى البيت وهى تقول:

- ولكن هناك شيئاً لا أستطيع أن أفهمه. لقد أرسلت جوانا الكلب وفى عنقه طوقا وسلسلة وأرسلت فى نفس الوقت طوقا آخر وسلسلة ثانية، فما معنى هذا؟

قلت:

- هذه دعابة صغيرة من جوانا. وسأفسرها لك.. أنها تقصد أنك ستطوقيننى بهما.

تمت

